العدد الخامس عشر - السنة الثامنة
ذو الحجة ١٤٠٩ هـ - يوليو ١٩٨٩ م

الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بقطر

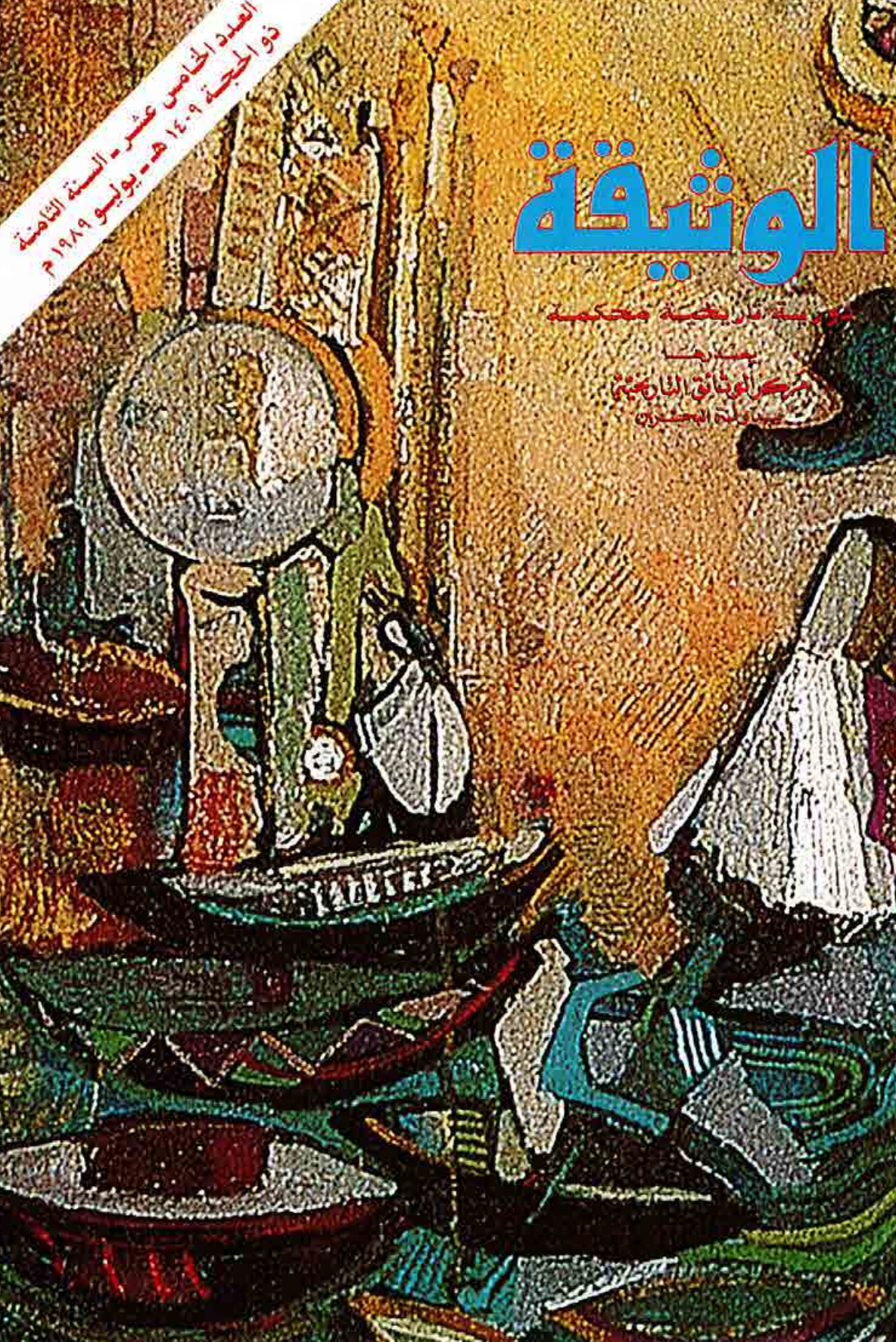

الإدارة العثمانيّة في الخليج العربي

بقلم الدكتور/
مصطفى عبدالقادر النجار (العراق)

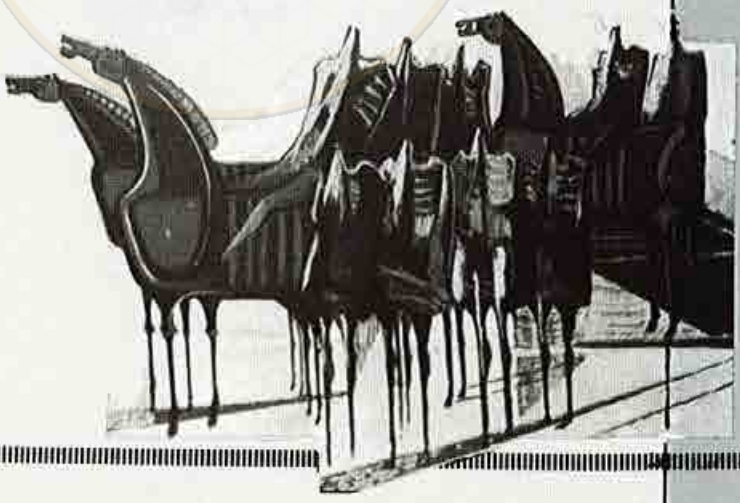

يعتبر شهر نيسان/ابريل من عام ١٨٧١ تاريخا بارزا في السياسة العثمانية ، فقد أعلن مدحت باشا في ذلك التاريخ سيادة الدولة العثمانية على الساحل الغربي للخليج العربي . ولكي يضع اعلانه موضع التنفيذ أعد حملة عثمانية كبيرة[١] بقيادة نافذ باشا[٢] متذرعا باستنجاد عبدالله بن فيصل بن تركي[٣] به سنة ١٨٧٠ في صراعه مع أخيه سعود . وقد خرجت الحملة من البصرة متجهة نحو الكويت[٤] فقدم شيخها عبدالله الصباح (١٨٦٦ ـ ١٨٩٢) مساعدات سخية[٥] للحملة إذ شارك بسفنه التي تزيد على الثلاثمائة سفينة عن طريق البحر[٦] وعهد الى أخيه مبارك بقيادة عشائر الكويت عن طريق البر . وقد تم للحملة التي نزلت في رأس تنورة في أيار سنة ١٨٧١ والتي تتكون من حوالي اربعة آلاف جندي نظامي و١٥٠٠ من أفراد العشائر وتسعة مدافع ـ الهيمنة على القطيف والهفوف بسرعة كبيرة وبدون أية مقاومة تذكر . فما كان والحالة هذه إلا أن أعلن السديري ـ عامل ابن سعود الذي تحصن في قلعة القطيف ـ الاستسلام . وعندئذ رفع العلم العثماني على القلعة اعلانا بخضوع لواء نجد ـ وهو الاسم الجديد الذي اطلق على مقاطعة الاحساء ـ الى السيادة العثمانية وأخذ نافذ باشا يعين الحكام في المقاطعات المختلفة[٧] .

وفي تموز سنة ١٨٧١ خرجت من الهفوف قوة عثمانية بقيادة شيخ الكويت سيطرت على قطر واتخذت من الدوحة قاعدة لها وبذلك تأكدت السيادة العثمانية على ذلك الجزء من الخليج العربي . على ان تلك السيادة ظلت تراوح مكانها ولم تستطع بعدئذ الزحف نحو الجنوب ، ولا أن تظهر لها آثار تذكر في الساحل العماني .

وفي سبيل تثبيت دعائم الحكم العثماني وتأكيد الادارة المباشرة في الساحل الغربي للخليج العربي وما يتبعه من جزر ، قام مدحت باشا في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر من نفس السنة بزيارة الاحساء ومكث فيها اربعين يوما ـ ليشرف بنفسه على نتائج حملته ، وقد قدمها عن طريق البحر ، ومنها سار في ثلاث سفن بخارية تحمل قوات كبيرة الى القطيف فوصلها في ١٤ تشرين الثاني . ومنها اتجه في اليوم السابع من وصوله الى العقير في فرقة قوامها ثلاثمائة جندي . ومنها سار الى الهفوف قاعدة الاحساء وقد نشر اعلانه الشهير الذي تضمن سياسته في المنطقة جاء فيه :

«لقد أسقطنا الرسومات التي تؤخذ من الأهالي باسم الجهاد وخدمات المأمورين على تحصيل الزكاة والزيادة في الخرص (التقدير) المخالف للاحكام الشرعية ـ ومراد الدولة العلية ترفيه احوال التبعية وزيادة ثروتهم وأمرنا بالغائها وعدم أخذها . ونبهنا المأمورين بعد تحليفهم على عدم الزيادة على الواجب الشرعي[٨] .» .

وقد بدأ مدحت باشا في الحال اجراء تنظيماته فأعلن ان الاحساء اصبحت من ممتلكات الدولة العثمانية وعين نافذ باشا متصرفا عليها[٩] وجعلها لواء ـ درجة ثانية بعد الولاية ـ من الوية البصرة [١٠] كما عين حكاما وقضاة شرع وقسم لواء نجد [١١] الى ثلاثة أقضية هي قضاء الهفوف وقضاء القطيف وقضاء قطر وجعل الهفوف ـ واحة الحساء ـ مركزا للواء[١٢] ـ مقر المتصرف ـ وجمع في شخص المتصرف «متصر ـ فلق» السلطتين المدنية والعسكرية[١٣] . وقسم قضاء الهفوف الى خمس نواح هي : الهفوف «المركز» والعيون ، والمبرز ، وباب الجفر ، والعقير . ولكن ذلك لم يشمل قضائي قطر والقطيف اللذين تركهما دون تقسيم واختار قضاء القطيف لأن يكون مركزا لتموين الأقضية الأخرى . وعين شيخ الدوحة قاسم بن ثاني[١٤] ـ اكثر الرجال نفوذا ـ قائمقاما» «قائمقا ملق» لقضاء قطر . وأجرى له راتبا سنويا ويعاونه في ادارة شئون القضاء معاون له»[١٥] . ولتأكيد اجراءات مدحت باشا في قطر قدمت قوة عثمانية يصحبها عبدالله الصباح شيخ الكويت على الباخرة العثمانية اشور وغيرها لزيارة الدوحة . وهبطت الى البر قوة قوامها مائة جندي مزودين بمدفع من مدافع الميدان الثقيلة[١٦] .

وقد فكر مدحت باشا بعدئذ بالهيمنة على البحرين ليتخذها قاعدة عسكرية لوقف عمليات حاكم الرياض الذي أخذ يهدد العثمانين في الاحساء . وكان قد سبق أن قدم مدحت باشا سنة ١٨٧٠ صياغة

محددة لادعاءاته فقال : «ان البحرين وتوابعها كانت تابعة لقائمقام نجد وانها اصبحت بالتالي تابعة للإمبراطورية العثمانية[١٧]» .

وبذل محاولات لاقناع شيخ البحرين بالتبعية العثمانية ، وارسل له عارف بك قائد بحرية البصرة ولكن شيخ البحرين رفض العرض بناء على تعليمات المقيم البريطاني لذا فإن الحكومة العثمانية اضطرت الى اجراء تسوية مع السعوديين ومع هذا فإنها استمرت بعد مدحت باشا في اتخاذ كل الوسائل التي توصلها للسيطرة على البحرين[١٨] .

والملاحظ ان اجراءات مدحت باشا قد أكدت علاقة الدولة العثمانية بكل من الكويت والاحساء وقطر عدا البحرين التي لم يظهر فيها النفوذ واضحا ـ إلا في فترات قصيرة ومحدودة ـ شأنها في ذلك شأن امارات الساحل العماني[١٩] التي لم يستطع مدحت باشا فرض السيادة عليها .

ولكن على الرغم من ذلك فإن حملة الاحساء تركت اساسا ارتكزت عليه الدولة العثمانية فيما بعد في تأكيدها لتلك السيادة . ولقد كان من الممكن ان تظهر فاعلية تلك الحملة لو استمرت الدولة العثمانية في مواظبتها في الجهد الذي بذله مدحت باشا ، إلا انه من الثابت ان ما قام به ذلك الوالي كان يعتمد الى حد كبير على طموحه الشخصي[٢٠] .

ويبدو ان مدحت باشا كان مدفوعا بحملته أكثر مما كان يريد منه الباب العالي . ويتضح ذلك من الاحتجاج الذي قدمته بريطانيا من احتمال تقدم قوات مدحت باشا الى الساحل العماني ومسقط . حيث أشعر الجميع انه ينظر نظرة أكثر شمولا واتساعا الى حدود نجد ، مع ان هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها بل البحرين وقطر وساحل عمان وسلطنة مسقط ايضا[٢١] ـ لكن الحكومة العثمانية أكدت لبريطانيا انها اصدرت تعليماتها لمدحت باشا بعدم التقدم أكثر مما حققت حملته .

ان اصرار مدحت باشا على تحقيق التوسع في الخليج العربي قد جره الى نزاع مع الحكومة البريطانية [٢٢] لذلك عندما حاول التطلع الى الامارات الاخرى في الخليج العربي حالت السفن البريطانية بينه وبين تحقيق غرضه [٢٣] .

وقد جرت مراسلات كثيرة حول محاولات التوسع العثماني في الخليج العربي بين الحكومة العثمانية والبريطانية . كانت الأولى تنفي باستمرار أن تكون لها نوايا توسعية أبعد من حدود نجد وعليه حددت بريطانيا خط حدود نجد بمناطق وكرة وبدعة وهما أبعد منطقتين وصلت اليهما القوات العثمانية على الساحل[٢٤] . عندئذ اعترفت في سنة

١٨٧٨ بالسيادة العثمانية على ساحل نجد حتى تلك الحدود . وذلك لما له من أهمية بالنسبة لبريطانيا في الابتعاد عن منازعات القبائل العربية في تلك الجهات ولكن على الرغم من هذا فإن الدولة العثمانية سرعان ما أغفلت هذه المنطقة ويلاحظ انها خففت كثيرا بعدئذ من قبضتها عليها فكان ذلك مدعاة لثورات سعودية متكررة .

ومهما يكن من أمر فإن خطط مدحت باشا اثارت بريطانيا من امتداد السيطرة العثمانية على الساحل الغربي . وبذلك تكون قد أحكمت السيطرة على سواحل الجزيرة العربية كلها وعندئذ سيتزعزع مركز بريطانيا في الجزء الجنوبي من الخليج العربي ، فكان رد الفعل البريطاني زيادة تشديد القبضة على الخليج العربي وذلك بعقد سلسلة من المعاهدات الجديدة مع شيوخ الامارات العربية كما انها استغلت قضية القرصنة في سبيل مقاومة التحرك العثماني الجديد وصارت تبالغ في خطورتها واستفحال أمرها بالنسبة للمناطق التي تخضع للعثمانيين في الخليج العربي وقد وجهت الى سلطات البصرة احتجاجات متكررة ومستمرة .

وقد أخذت وزارة الخارجية البريطانية في هذا الوقت زمام السلطة الفعلية في قضايا الخليج العربي وكانت قبلا من اختصاص وزارة الهند وحدها[٢٥] . ومن دراستنا لطبيعة حكم العثمانيين في الاحساء يتضح لنا ان النظام الاداري فيها كان اقل احكاما عما هو عليه في ولايات العراق . فهو يأخذ بعض الشيء سمات الحكم العسكري . وفي الهفوف والقطيف أحكمت ركائزه جيدا[٢٦] ويعطينا لوريمر صورة واضحة لذلك النظام العسكري فيقول :

«كانت الزراعة تدار بواسطة قوات عسكرية . وفي أغلب القرى يوجد مشيخات وراثية والرئيس فيها هو المختار بوساطة اربع شخصيات محترمة . وتتألف القوة العسكرية للمتصرفية من اربع حاميات . منها حاميتان للمشاة واثنتان للمدفعية التي تجرها البغال . وهذه القوة بمجموعها تكون الطابور الرابع لولاية البصرة[٢٧] وليس في المنطقة مكاتب للبريد والبرق .

أما البريد الرسمي فيتم نقله بمساعدة قبائل عجمان وبني هاجر وبني خالد والمرة[٢٨] القاء ما يدفع لهم من معونات تقدر بـ ٤٣٧,٥٠ ليرة (ما يعادل ٤٠٠ جنيه استرليني) .. ويتبع في انحاء المتصرفية نظام النفي لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على السلطة وانتهاك حرمة الغير . أما قوة الشرطة فتتألف من ست مفرزات أو فرق من الضابطية أو الجندرمة ورجال الضابطية ـ كما هو في العراق العثماني ـ معظمهم من

الأكراد . والدخل في الاحساء معظمه من الزراعة . وتفرض ضريبة نقدية على التمر تتناسب مع عدد النخيل . والضرائب في المتصرفية لا تدار بواسطة ادارات الضرائب العثمانية كما هو الحال في ولاية البصرة ولكنها سنوية . كما ان هناك ضرائب على قوارب اللؤلؤ وقد قدر الدخل السنوي لمتصرفية الاحساء بستين ألف ليرة . يصرف منها ٥٤ الف ليرة لتغطية النفقات العسكرية والباقي ـ ٦ آلاف ليرة ـ كمصروفات للخدمات الادارية المدنية وقد فرضت القوانين العثمانية على المتصرفية . وفيها دائرة التعليم العامة التي تدير مدارس بأماكن مختلفة[٢٩] .

وقد ادرك العثمانيون بعد تجربة حكمهم العسكري انهم لا يستطيعون حكم نجد حكما مباشرا ـ كما اراد لها مدحت باشا ـ لاسباب عدة : اولها النفقات المالية والعسكرية وثانيها قسوة المناخ في تلك الجهات[٣٠] وثالثها فقر المنطقة وآخرها بعدها عن مركز الخلافة . هذه الاسباب وغيرها من الصعاب دفعت الدولة العثمانية لأن تتبع تجربة ـ لم تستمر طويلا ـ في الادارة الاقتصادية للاقليم وذلك بتخفيض عدد جنود الحامية الى أقصى حد ممكن . وعهدت بأمور الاحساء الى آل السعدون ـ شيوخ المنتفك الذين كانوا يحكمون البصرة ـ وهؤلاء كان همهم الوحيد اتباع سياسة تجعلهم يحافظون على المتصرفية بقدر الإمكان وعليه قرر ناصر باشا السعدون والي البصرة سنة ١٨٧٤ ادخال نظام قليل التكاليف محاولا أن يجعلها تسير في طريق الحكم المحلي . وعمل على سحب معظم الحاميات العثمانية الى البصرة . واراد ان يشرف على التجربة بنفسه فحضر على رأس وفد يصاحبه فيه أحمد باشا قائد ما تبقى من القوات العثمانية الى الاحساء[٣١] .

وقد نقلت السفن العثمانية «اشور» و«ابنس» و«لبنان» و«سينوب» الوفد الى رأس تنورة .

وشهدت الهفوف عقد مؤتمر كبير أعلن فيه ناصر السعدون تعيين براك بن عرير[٣٢] شيخ بني خالد الذي يكون ناصر السعدون صهرا له متصرفا على الاحساء .. ووضع بعض الحاميات العسكرية تحت تصرفه . ثم عاد الوفد العراقي الى البصرة مع معظم القوات العثمانية وعدد من الأسرى الذين يعارضون تعيين براك [٣٣] .

ولكن اجراءات ناصر السعدون لم تأت بنتيجة تذكر فقد توالت الثورات ضد الحكم العثماني في نجد ولم يستطع الحاكم منع تجددها[٣٤] وقامت عدة معارك بين العثمانيين والسعوديين الأمر الذي أجبر ناصر السعدون على أن يتسلم زمام الأمور في متصرفية الاحساء

بنفسه . وقد حضرها سنة ١٨٧٥ على رأس قوة قوامها ٢٤٠٠ جندى وأربعة مدافع . استطاع بوساطتها ان يهدىء الأحوال فيها . واتخذ عدة اجراءات رادعة وعندما عاد الى البصرة جعل ابنه فريد باشا متصرفا على الاحساء .

ولكن والي البصرة[٣٥] الذي نجح في كبت المعارضة الداخلية في الاقليم لم يستطع ان يصد الاخطار الخارجية عنه . وصار يتعرض الى غارات سعودية متوالية . وقد شهدت الفترة ما بين ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩ أعنف هزة سعودية كادت تنجح في انهاء الوجود العثماني في الخليج العربي ، لولا وصول الامدادات المتلاحقة من البصرة التي استطاعت ان تدعم الوضع القائم وتنقذه من الانهيار ويبدو ان الدولة العثمانية ـ بعد هذه الفترة ـ غيرت من اسلوب الصدام المباشر مع السعوديين وذلك بتعاملها مع آل رشيد الذين وجدت فيهم خير وسيلة للوقوف بوجه تحرشات السعوديين .

عندئذ أمنت على مركزها في الاحساء وقد استطاعت بفعل اسلوبها الجديد هذا ان تتحاشى كل الهزات التي كانت تنتابها سابقا وبذلك وفرت عليها الكثير من الاستعدادات اللازمة لمثل تلك الأمور ولم تعد تسمع بعدئذ انباء عن أي هجوم سعودي على الاحساء حتى قبيل الحرب العالمية الأولى . أما الموقف البريطاني من التواجد العثماني في تلك الفترة فقد افصح عنه اللورد كيرزن سنة ١٨٩٢ عندما قال : «ان السيادة العثمانية تمتد من القطيف الى الفاو[٣٦] .

كما ان السفير البريطاني في الاستانة السير فورد (Sir Ford) كتب سنة ١٨٩٣ رسميا الى وزير الخارجية العثمانية يبلغه :

«ان حكومة صاحبة الجلالة تعترف بحقوق الدولة العثمانية في السيادة على طول الساحل من البصرة الى القطيف[٣٧]» وهذا تأكيد من بريطانيا لما سبق ان اعترفت به سنة ١٨٧٨ من ان سيادة الدولة العثمانية تمتد على طول ساحل نجد .

وبالنسبة للسيادة العثمانية على قضاء قطر التابع لمتصرفية الاحساء ـ فلقد أعيد تنظيم الادارة العثمانية فيه سنة ١٨٨٩ على اثر زيارة متصرف الاحساء للدوحة في تموز ١٨٨٩ حيث أوصى بإقامة دار حكومية تضم قوة عسكرية من الفرسان والمشاة للمحافظة على الأمن وان يعاد النظر في الضرائب المفروضة على تجار اللؤلؤ وأن يعين مدير للميناء مسئول عن تحصيل العوائد من السفن الوطنية كما عمل على فتح مكاتب بريدية في الزبارة والعديد وأمر بتسيير سفينتين بخاريتين بشكل منتظم بين الدوحة والعقير والقطيف . واقترح اقامة

مسجد في العقير . وازاء تلك الاجراءات قدم الشيخ قاسم بن ثاني ـ قائمقام قطر ـ استقالته معلنا ان الحكم انتقل من بين يديه الى ايدي المسئولين العثمانيين ولكن والي البصرة رفض استقالته ونصحه في اوائل ١٨٩١ بالعدول عنها[٣٨] ومنذ ذلك التاريخ بدأت العلاقة تتأزم بين القائمقام والوالي وقد استطاع الشيخ قاسم احباط مشروع اقامة الدار الحكومية في الدوحة . على ان الأزمة قد تفاقمت سنة ١٨٩٣ اثر زيارة والي البصرة لمتصرفية الاحساء ومروره بقضاء قطر وقد سير له والي البصرة حملة عهد بقيادتها الى محمد حافظ باشا قائد الجيش العثماني في الاحساء وحظيت الحملة بتأييد الشيخ محمد الصباح وارسل اخاه مبارك على رأس قوة من الكويتيين ولم تسو المشكلة إلا بعد ان تدخل محمد سعيد نقيب البصرة في حزيران سنة ١٨٩٣ في الأمر وأقنع الشيخ قاسم بالتنازل عن الحكم لأخيه الشيخ أحمد[٣٩] ولكن رغم هذا فإن الشيخ قاسم بقى هو الحاكم الفعلي في قطر ويذكر لوريمر انه «منذ ذلك الوقت كان شيوخ قطر متهيئين للحماية البريطانية[٤٠] .

والواقع ان الدولة العثمانية قد بذلت محاولات جادة لتقوية نفوذها في متصرفية الاحساء وتوابعها في وقت أخذت تحس بوطأة الضغط البريطاني والسعودي الثقيلين عليها . فوقع اختيارها على السيد طالب النقيب سنة ١٩٠٢ لتجعله متصرفا على الاحساء[٤١] . في محاولة لاصلاح الأمور وتهدئة الاوضاع والحيلولة دون تعرضها للقوى المناوئة . ويبدو ان تعيينه جاء اثر تلقى الصدر الأعظم رسالة سرية من ابن رشيد[٤٢] حليف العثمانيين في الجزيرة ـ يحذر من محاولة اغراء الانكليز لشيخ الكويت مبارك بالاستيلاء على المواقع العثمانية في الاحساء[٤٣] . ولكن عهد السيد طالب النقيب في متصرفية الاحساء كان قصيرا .

ولم يترك أي أثر واضح في مجريات الأمور ورغم انه نجح في كبت المعارضة الداخلية للدولة العثمانية وقضى على آثار الفوضى الداخلية إلا انه كانت تعوزه الخبرة الادارية والحنكة السياسية في معالجة القضايا في مثل هذه الجهات . لذلك فقد بان فشله بعد سنة واحدة من تسلمه منصبه الجديد على اثر حادثة ادارية[٤٤] . أرغمت السلطات العثمانية على ايقافه عن عمله لكنه ظل يحتفظ بوظيفته اسميا حتى سنة ١٩٠٥ [٤٥].

ولم يستطع النقيب ان يحدث أي تغيير يذكر في الاحساء كما توقعت له الدولة العثمانية وكان حكمه فيها يقوم على التهديد والقوة . ولذلك فقد عادت الفوضى تضرب اطنابها في المنطقة بعد تنحيته .

ويمكننا ونحن ندرس التاريخ العام للمنطقة ـ ان نميز فترة شبيهة بفترة ولاية مدحت باشا في الخليج العربي من حيث توجيه الاهتمام الكامل لهذه الربوع ، وتقوية نفوذ الدولة العثمانيةفيها . تلك هي فترة حكم الاتحاديين . فقد شهدت البصرة في عهدهم نشاطا كبيرا لاعادة السيطرة العثمانية على مناطق الخليج العربي الذي أخذ النفوذ العثماني يتقهقر فيها . وكان العثمانيون مدفوعين ـ بلا شك ـ بتأثير المشاريع الالمانية في الخليج العربي .

وأول خطوة اتخذها حكام الدولة العثمانية الجدد في الخليج العربي هو الايعاز سنة ١٩١٠ الى السلطات في البصرة بارسال فرقة من الجنود لاحتلال جزيرة الزخنونية[٤٦] اذ قامت هذه الفرقة برفع الراية العثمانية على تلك الجزيرة . ولم يلق احتجاج الحكومة البريطانية على ذلك العمل اهتماما من السلطات العثمانية وأنكر والي البصرة على القنصل البريطاني حقه في أن يناقش معه هذه المشكلة رسميا أو شخصيا[٤٧] .

وقد أعقب الاجراء العثماني هذا خطوات أخرى أكثر جرأة وذلك عندما اقدم والي البصرة على تعيين اداريين من الاتراك في كل من موانىء العديد والوكرة والزبارة وغيرها من الموانىء ذات التبعية العثمانية . كما ارسل العديد من الحاميات العثمانية بحجة حماية موسم صيد اللؤلؤ[٤٨] ولكن يبدو ان اندفاع ولاة البصرة وبغداد وتدعيم السيطرة العثمانية في الخليج العربي لم يستمر دعمه من قبل الاتحاديين وانما نستطيع القول ان هناك تفاوتا واضحا بين ما اتبعه ولاة العراق من الاتحاديين من تحمس شديد لاقرار نفوذهم في تلك الجهات وبين ميل الاستانة الى اسلوب التفاوض دوليا عليها .

ومن المؤكد ان الذي ارغم الاتحاديين لاتخاذ هذا النهج هو متاعبهم مع ايطاليا في ليبيا وما صادفوه من مصاعب في البلقان وما جرته عليهم مشاكلهم مع روسيا . فضلا عن ان الجيش العثماني كان مايزال تحت التنظيم الالماني وكان لا بد أن تمر سنوات عديدة قبل ان تستطيع الدولة توجيه سياستها الى هذه المناطق البعيدة[٤٩] .

والواقع ان الادارة العثمانية في متصرفية الاحساء كانت تجر وراءها مشاكل سياسية كبيرة . فلم تكن الادارة فيها من القوة والوعي بدرجة تجعلها تنهض بالمتصرفية ذات الموقع الاستراتيجي الخطير وقد كانت دائما عبئا ماليا ثقيلا . وان محاولات المتصرفين في تحصيل عوائد الموانىء والضرائب الزراعية اصبحت سببا في القضاء على كل نشاط تجاري وزراعي وظل الصراع قائما بين اهالي الاحساء والحكام العثمانيين . وهجر الاحساء

الى البحرين الكثيرون هربا من ثقل الضرائب المفروضة عليهم وقد اصبحت البحرين تنافس الاحساء في تجارتها كما ان القوات العثمانية لم تستطع ان تحافظ على الأرض على طول الساحل النجدي حيث اصبح مضطربا بصورة دائمة اما الاجراءات العثمانية فهي اضعف من ان توقف تلك الاضطرابات هذا اضافة الى ان الثورات الداخلية كانت تسبب ازعاجا دائما للحكام العثمانيين . وقد شهدت الاحساء غارات مستمرة كلفت الادارة العثمانية الشيء الكثير والطرق التجارية لم تسلم من هجمات البدو الذين وجدوا في قوافل التجار موردا اقتصاديا وفيرا .

كاظمة
لأرشفة التراث الديني

الهوامش

١ ـ تضم السفينة الحربية البخارية (برونزة) مسلحة بخمسة وعشرين مدفعا والسفينة غير المسلحة (نينون) وزودت باربعة مدافع وسفينة الحراسة (خوجة بك) وهي خشبية قديمة عليها ١٨ مدفعا قديما والى جانب تلك السفن هناك ثلاث سفن صغيرة من صنع البصرة تحمل بين ٤ ـ ١٢ مدفعا كما اضيف الى ذلك الاسطول العثماني سفينتان أخريان .

٢ ـ سماه محمد انيس وسيد رجب حراز في كتابيهما الشرق العربي «حافظ باشا» وهو غير صحيح . راجع ص ١٥٠ .

٣ ـ عن التفاصيل في ذلك راجع عبدالفتاح حسن ابو عليه ـ الدولة السعودية الثانية (١٨٤٠ ـ ١٨٦١) رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٦٩ .

٤ ـ كان يرافق الحملة السيد/ محمد سعيد ابن نقيب البصرة وشيخ المنتفك الشيخ منصور وغيره من شيوخ عرب العراق .

٥ ـ يذكر سيد رجب حراز ـ الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ص ١٧١ ان ذلك كان سبب منحه لقب باشا واراضي واسعة على شاطىء الفرات بالقرب من الفاو . والواقع ان الفرات بعيد عن الفاو . وان الفاو تقع عند مصب شط العرب في الخليج العربي ولا يمكن ان تكون تلك الأراضي والحالة هذه واقعة على شاطىء الفرات وهي في الوقت نفسه قريبة من الفاو .

٦ ـ Lorimer, op. cit. vol.I. Part I P.P. 968-969 بينما يقدرها سيف مرزوق الشملان ـ من تاريخ الكويت ص ١٣٦ بثمانين سفينة .

٧ ـ Longrigg, op. cit. p.p. 302-303

٨ ـ راجع نص البيان في محمد سعيد المسلم ـ ساحل الذهب الاسود ص ٨٩ ـ ١٩٠

٩ ـ Lorimer, op. cit. Vol. I part I P. 970

١٠ـ كان مدحت باشا قد اصدر نظاما جديدا للادارة في ٢٩ شوال سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧١ م جعل ولاية البصرة تتالف من اربعة الوية وهي :

١ ـ لواء البصرة وقسمه الى اقضية البصرة والفاو والقرنة والكويت .

٢ ـ لواء المنتفك : وقسمه الى اقضية الحي والناصرية وشطرة المنتفك وسوق الشيوخ .
٣ ـ لواء العمارة : وقسمة الى اقضية دويرج وشطرة العمارة .
٤ ـ لواء نجد (الاحساء) : وقسمه الى اقضية الهفوف والقطيف وقطر .

١١ـ يذكر لوريمر ـ دليل الخليج جـ ٣ ص ١٤٥٩ ان تعبير نجد الذي يستخدمه مدحت باشا يشمل الشارقة ودبي وابوظبي . ويذهب لوريمر الى قوله هذا بناء على قائمة نشرت في جريدة بغداد الرسمية تحمل من بين بيوت وحدائق نجد تلك المدن .

١٢ـ في سنة ١٩٠٥ استحدث سنجق القصيم الى جانب سنجق الاحساء وقسمته الحكومة العثمانية الى قضائين هما بريده والرياض :
راجع خالد محسن اسماعيل ـ قلم وزير ـ آثار ابراهيم صالح شكر ص ٨٩ .

١٣ـ لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم الجغرافي جـ ٢ ص ١٠١٩ .

١٤ـ كان ابوه الشيخ محمد أميل للتفاهم مع بريطانيا منه الى العثمانيين . ولكنه كان قد شاخ ويعوزه الحزم ولم يكن له صوت يذكر في الحياة العامة حتى توفي سنة ١٨٧٨ .

١٥ـ كان الاتراك يبذلون جهودا لتقديم موظف تركي لوظيفة مساعد للقائمقام . وفي سنة ١٩٠٣ كان الباب العالي يحاول انشاء مديريات في كل من الوكرة والزبارة للأعمال الرسمية التركية واستمر اتصال الحامية التركية بالعالم الخارجي عن طريق مكتب البريد عبر الصحراء «شهريا» عن طريق الهفوف .

١٦ـ لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي جـ ٣ ص ١٢٢١ .

١٧ـ المصدر نفسه ص ١٣٦٢ .

١٨ـ للزيادة في تفاصيل علاقة العثمانيين بالبحرين (١٨٧١ ـ ١٨٩٥) راجع نفس المصدر ص/١٣٧٨ ـ ١٣٨٦ .

١٩ـ للتفاصيل راجع عنها Donald Hawley, The Trucial States (London - 1970) .

٢٠ـ جمال زكريا قاسم ـ المصدر السابق ص : ٢٠٣

٢١ـ كيلي ـ ترجمة خيري حماد ـ الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية صفحة ١٤٢ .

٢٢ـ للاطلاع راجع جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربي ص ١٨٦ ـ ١٩٠ وللوقوف على تفاصيل وافية عن الحكم العثماني في الاحساء واهمية الحملة والتطورات التي تركتها . راجع الفصل الخامس ـ حملة الاحساء ص ١٧١ ـ ٢٠٤ .

٢٣ـ Curzon, Persia and Persian Question, Vol. 11 p. 545

٢٤ـ Aitchison, collection of treaties engagements and asanads relating to India

and Neighbouring Countries vol. X. P. 115 .

٢٥- جمال زكريا قاسم - مختارات من وثائق الكويت والخليج - مقدمه .

٢٦- Zwemer, Arabia "The Cradle of Islam" studies in the geography, people and politics of the peninsula with an Account of Islam Mission p. 117.
ويمكن الرجوع الى الصفحات ١١٣ ، ١١٧ للزيادة في الاطلاع على طبيعة ذلك الحكم .

٢٧- بجانب ذلك هناك حامية في قضاء قطر بالدوحة الاحسا من حيث المواصلات البريدية مع العراق العثماني .

٢٨- يتم نقل البريد الرسمي بواسطة الخيل . ويختار حامل البريد من بين القبائل الموالية وهناك رحلة اسبوعية بين الهفوف والقطيف تستغرق ثلاثة ايام ورحلة شهرية بين القطيف والدوحة في قطر تستغرق اربعة ايام . والمواصلات بين الهفوف والبصرة كانت ترسل منذ سنة ١٨٧١ عن طريق البحر ثم أخذت ترسل عن طريق البر .. للتفاصيل راجع : لوريمر - المصدر نفسه ص ١٠٢٥ .

٢٩- نفس المصدر ص : ١٠٣٠ - ١٠٢٤ . وللاطلاع على تفاصيل النظام الأجنبي والاقطاعي يمكن مراجعة : Lutsky, Modern History of Arab countries p.p. 10-28

٣٠- لوريمر - المصدر السابق ١٤٥٧ .

٣١- للتفاصيل راجع عبدالله فلبي - تاريخ نجد ص ٢٥٩ .

٣٢- يذكر لوريمر - المصدر السابق - هامش ص ١٤٦٢ ان الاسم يرد احيانا بزيع أو بازة ولكن الصحيح هو بركة وقد وقع في هذا الخطا ديكسون . أنظر كتابه الكويت وجاراتها جـ ١ ص ١١٩ .

٣٣- لوريمر - المصدر السابق ١٤٦١

٣٤- Langrigg, op. cit. p. 303 .

٣٥- تم فصل الاحساء وغيرها من الاقاليم التابعة للبصرة من بغداد سنة ١٨٧٥ واصبحت ولاية مستقلة وبقيت كذلك حتى سنة ١٨٨٠ حيث اعيدت مرة اخرى الى ولاية بغداد ولكنها انفصلت عنها فصلا نهائيا سنة ١٨٨٤ واصبحت دولة مستقلة .

٣٦- Curzon, op. cit. Vol. II p. 462 .

٣٧- لوريمر - المصدر السابق ص ١٥٢٥ - ١٥٢٦ .

٣٨- نفس المصدر ص ١٢٢٧ .

٣٩- قتل الشيخ احمد سنة ١٩٠٥ .

٤٠- لوريمر المصدر السابق ص ١٢٥٠ .

٤١ـ عمر فوزي كركوكلي ـ ارج الطيب في مآثر السيد طالب النقيب ص ١٣ .
٤٢ـ عبدالعزيز بن متعب بن رشيد حاكم نجد آنذاك .
٤٣ـ F.O. 7835252, No. 282 .
رسالة من السفير البريطاني في القسطنطينية الى وزارة الخارجية البريطانية مؤرخة في ١٧ حزيران سنة ١٩٠٢ مع نص مترجم لكتاب عبدالعزيز الرشيد .
٤٤ ـ راجع عنها محمد سعيد المسلم ـ ساحل الذهب الاسود ص ١٩١ .
٤٥ـ لوريمر ـ المصدر السابق جـ ٦ ص ١٩١ .
٤٦ـ تقع جنوب شرقي العقير .
٤٧ـ جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربي ص ٣٢٥ .
٤٨ـ نفسه ص ٣٢٦ .
٤٩ـ نفسه ص ٣٢٥ ـ ٣٣٠ حيث يمكن الرجوع اليه للوقوف على تفاصيل أكثر .

كاظمة
لأرشفة التراث الديني

توسّع الدولة العثمانية في الخليج
في القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر الهجري

بقلم : ابراهيم خوري

الحقبة البرتغالية
٩٠٤ - ١٠٣٥هـ • ١٤٩٨ - ١٦٢٥م

خريف سنة ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م ،

بدأت الصلات التاريخية المباشرة بين الخليج العربي والدولة العثمانية بتقديم راشد بن مغامس مفاتيح البصرة الى السلطان سليمان القانوني في اواخر فصل

وانتهت باحتلال الانجليز للعراق في الربع الاول من القرن العشرين (١٩١٤ - ١٩١٨) . فدامت اربعة قرون تقريبا ، وتنوّعت ، فمنها الصلات الدينية . ومنها العلاقات الثقافية والعلمية والحضارية والسياسية . ومنها ايضا وحدة

العرب وتداعيات الاقتصادية

السادس عشر والسابع عشر الميلادي

المصالح الاقتصادية بين عرب جزيرة العرب عامة وعرب الخليج خاصة وبين العثمانيين .

أ . سيطرة الدولة العثمانية على منافذ تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط:

ففي غضون فترة قصيرة جدا تقل عن ربع قرن ، نهض العثمانيون من كبوتهم بعد تلقيهم ضربة قاصمة من تيمور لنك في معركة انقرة سنة ٨٠٥ هـ/١٤٥٢ م) واعادوا تكوين امبراطوريتهم فاحتلوا القسطنطينية (٨٥٧هـ/١٤٠٢ م) في عهد محمد الثاني الفاتح ، وتوالى توّسعهم في البلقان واوروبا وجزر البحر المتوسط . وانتصروا على الصفويين في كردستان (جالديران : ٩٢٠هـ/١٥١٤ م) وقضوا على دولة المماليك في سوريا (مرج دابق : ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م) وفي مصر (٩٢٣هـ/١٥١٧ م) في عهد سليم الاول . واحتلوا العراق (٩٤١ هـ/١٥٣٤ م) في عهد سليمان

القانوني .

وبذلك سيطر العثمانيون على منافذ تجارة المرور الدولية من بحر الهند الى البحر المتوسط في الاتجاهين ، عن طريق الخليج العربي وعن طريق البحر الاحمر .

ب . سيطرة العرب على طرق تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط

اما عرب الخليج والبحر الاحمر ، فقد قاموا بلا منازع ، على مرّ العصور ، ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد وحتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، اي على مدى ستة واربعين قرنا ، بدور الوسطاء في التبادل التجاري في العالم المكتشف والمعروف آنذاك ، بين سواحل بحر الهند والصين وبين سواحل البحر المتوسط ، وفي الاتجاهين : من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .

وتنوّعت السلع المتبادلة تنوعا كبيرا ، قديما وحديثا ، ولم تقتصر ابدا على التوابل ، بل شملت اصنافا كثيرة اشار اليها باسمائها كتاب الطواف حول البحر الاحمر في القرن الاول الميلادي ، وكتاب التبصّر بالتجارة للجاحظ في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وكتاب ثغر عدن لبامخرمة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي . وتحدثت عنها شتى الوثائق العربية والهندية والبرتغالية ومحفوظات مدن البندقية وجينوة ومرسيلية خاصة .

وكانت تجارة تلك الاصناف تدّر ارباحا طالة على منتجيها وناقليها والمتعاملين بها وعلى السلطات السياسية القائمة في الاماكن التي تمرّ بها . وسادت قواعد سلوك في التعامل الحرّ بها ، كرّستها اعراف تجارية رضي بها الشرق ، وقبل بها الغرب ، وتقيّد بها العرب . فبنيت العلاقات الاقتصادية الدولية على اسس ثابتة ودائمة .

وكان التجار يسلكون طريقين عربيين : طريق الخليج العربي الى البصرة بتفرعاتها ، واهمّها بغداد فحلب او دمشق فاحد موانىء البحر المتوسط ، وطريق البحر الاحمر بتفرعاتها ، واهمها الانطلاق من عدن الى جدّة فالسويس فالقاهرة فالاسكندرية .

جـ . تهديد البرتغاليين وطريق الاطلسي وتجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط :

لكن طرأت احداث عالمية خطيرة جدا اثرت في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط . فقد فتح البرتغاليون طريقا ثالثة ، وحاولوا جهد المستطاع حصر حركة التبادل بين الشرق والغرب فيها وحدها ، فهدّدوا مصالح العرب والعثمانيين

الاقتصادية تهديدا سافرا ومباشرا ، ادّى الى نشوب نزاع مسلّح متقطع بينهم وبين المعتدى عليهم ، دام قرنا وربع قرن (٩٠٤هـ/١٤٩٨ م - ١٠٣٥ هـ/١٦٢٥ م) ، أي من وصول داغاما الى الهند حتى طرد البرتغاليين من جزيرة هرموز ، وانتهى باقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي والبحر الاحمر . وبقى الطريقان العربيان عاملين طيلة مدة النزاع ، وسالكين حتى الربع الاول من القرن السابع عشر .

د . خصائص الصراع العربي العثماني البرتغالي على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والمتوسط :

اذن امتدّ الصراع بين العرب والعثمانيين والبرتغاليين على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط على زمن طويل جدا . وتميّز بثلاثة احداث كبرى :

أولها : فشل البرتغاليين في تحويل تجارة المرور عن مسارها التقليدي الى الطريق الاطلسية وبالتالي فشلهم في ضرب المصالح الاقتصادية العربية في الخليج العربي وفي البحر الاحمر .

ثانيها : فشل العثمانيين في حماية المصالح الاقتصادية المشتركة بينهم وبين العرب .

ثالثها : نجاح عرب الخليج في ابقاء العرب وسطاء حتميين في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط .

هـ . اقسام البحث

ويتجلّى هذا الواقع التاريخي بوضوح في استعراضنا :

١ ـ القوى العالمية والمحلية الفاعلة في تجارة المرور في الخليج العربي .

٢ ـ والتوسع العثماني في الخليج العربي واثره في تجاره المرور في الخليج العربي .

٣ ـ واستمرار وصول السلع الى الخليج العربي وشحنها الى البحر المتوسط او الى بحر الهند ودام هذا الواقع التاريخي طيلة القرن السادس عشر وفي الربع الاول من القرن السابع عشر .

ويقتصر تحليلنا على هذه الحقبة التي نسميها حقبة الفتوحات البرتغالية ، او الحقبة البرتغالية باختصار ، التي اعقبتها حقبة اخطر منها بكثير ، هي الحقبة الهولندية الانجليزية الفرنسية الخارجة عن موضوعنا .

القسم الأول

القوى المحلية والعالمية الفاعلة في تجارة المرور في الخليج العربي

لا يمكن عزل النشاط التجاري في الخليج العربي عن التأثير الدولي القريب منه - أو حتى البعيد عنه احيانا ، ولا عن ارادة اهل الخليج انفسهم . فلهؤلاء مصالح اقتصادية مباشرة وأساسية بالتبادل القائم على ارضهم او المار عبر مياههم باتجاه البصرة او باتجاه عدن فالبحر الاحمر . وللصفويين في فارس والعراق ، وللمماليك في سوريا ومصر ، او من يحلّ محلّهم في المستقبل ، مصالح مماثلة بحكم سيطرتهم على منافذ طريق الخليج على البحر المتوسط . وللبرتغاليين ايضا نفس المصالح بعد سيطرتهم على بعض موارد التجارة الدولية وعلى بعض مسالكها في بعض انحاء سواحل الهند وفي بعض انحاء بحر العرب ، وبعد نجاحهم الجزئي والمؤقت بدخول الخليج العربي والبحر الاحمر .

ولم يعقد بين الفرقاء المعنيين اي اتفاق ينظم مصالحهم ، ويدرأ مضاعفات تناقضها فظلّت متضاربة ، تثير الحروب بينهم ، وتعقّد الصلات بين عرب الخليج والدولة العثمانية .

وهؤلاء الفرقاء هم مملكة هرموز في الخليج ، والصفويون في فارس والعراق والمماليك والعثمانيون على سواحل البحر المتوسط ، والبرتغاليون في الهند وبحر العرب والخليج العربي .

مملكة هرموز العربية

فمملكة هرموز سلطنة عربية ، كانت تشمل في القرن السادس عشر جزر الخليج العربي وسواحله من الاحساء وسيراف الى رأس مسندم ، وساحل عمان من رأس مسندم الى رأس الحدّ ويمكن بلا مغالاة اعتبارها بندقية العرب .

وتأسست مدينة هرموز في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على ساحل مكران ، شرقي بندر عباس ، على بعد ٣٠ ميلا منه . لكن حوالي ١٣٠٠ م ، هددتها غارات التتار فانتقلت الى جزيرة جرون (اورغانا عهد نيارخس) على مسافة ١٢ ميلا تقريبا الى الجهة الغربية وعلى

بعد خمسة اميال من الشاطىء . ثم خضعت اسميا ونظريا لشاهرخ ميرزا (١٤٠٥ ـ ١٤٤٧) ، ودفعت له اتاوة . الا انها كانت عمليا مستقلة وقوية ماليا وعسكريا . ويمتد نفوذها على مائة ميل حولها . وكانت مركزا تجاريا كبيرا ، تسيطر على النشاط التجاري الدولي البحري مع الشرق الاقصى والهند ، والبري مع خراسان وفارس والعراق . وقد ازدهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ازدهارا لا مثيل له . فكانت ترسو في بندرها ٣٠٠ سفينة في آن واحد ، ويقطن فيها ٤٠٠ تاجر غريب ، يتاجرون بالحرير واللآلىء ، والحلى والتوابل على وجه الخصوص . وتتعامل هرمـوز مع جزيرة العرب وكمباية وكاليكـوت وشيول ودابول وبنجالة ، وفارس وعدن والقاهرة والاسكندرية والصين والعراق .

ويجلب اليها من الشرق التوابل والعقاقير والحجارة الكريمة وسلع اخرى ، لا سيما الفلفل والزنجبيل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والفلفل الطويل والعود والصندل والبلسم والتمر الهندي والزعفران الهندي وشمع العسل والحديد والسكر والارز وجـوز الهند واليـواقيت والخزف والميعة . وتحمل منها السلع الواردة اليها من جزيرة العرب ومصر وبلاد الشام واوربا .

ويدير شئونها مجلس مؤلف من التجار الاثرياء برئاسة سلطانها . وكانت تابعة لها مسقط وقلهـات وصحار وخورفكان وجلفار والقسم والبحرين والقطيف وغيرها .

وقد وصفها بدقة ووصف نشاطها الفريد ماهوان في كتابه «الكامل في وصف سواحل المحيط» المنشور سنة ١٤٥١ بعد تداوله مخطوطا منذ عام ١٤٣٤ . كذلك فعل دوارته بربوسة سنة ١٥١٧ . واعطى احمد بن ماجد صورة حسية عن اهميتها ايضا .

اذن كانت هرموز بندر مرور وسوق بيع وشراء سلع بلدان بحر الهند وبلدان البحر المتوسط على حدّ سواء . بالتالي ، كل ما يعرقل وصول البضائع اليها من الشرق او الغرب ، يؤثر في التجـارة العالميـة ، ويلحق الضرر بمصالحها الاقتصادية الحيـوية . ومن هنا يتضح خطر وجود البرتغاليين في الجنوب على نشاطها ، وخطر وجود الصفويين والعثمانيين في الشمال والشمال الغربي البعيد عليه .

الصفويون في فارس والعراق

توالت الاحداث العالمية بسرعة في فارس والعراق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . واجتاحتهما قبائل مغولية وتركمانية لم تستطع اي منها ان ترسّخ اقدامها فيهما مدة طويلة .

من هذه القبائل الجلائر . وهم سلالة مغولية زعيمها حسن بزرك او

الشيخ حسن الجلائرى ، حكمت العراق من سنة ١٣٣٩ الى ١٤١١ ، واتخذت بغداد عاصمة لها . وانتزع ثاني سلاطينها المدعو اويس بن حسن بزرك ، تبريز واذربيجان من القبائل الذهبية ، وضم الموصل وديار بكر الى دولته .

ومنها ايضا القبائل التركمانية ، المعروفة باسم قرة قويونلو او الخروف الاسود ، التي زحفت على الجلائر من منطقة بحيرة وان ، واخذت منهم الموصل (١٣٧٥) ثم تبريز (١٣٨٧) .

وأتى دور تيمور لنك ، فاقتحم اراضى الخروف الاسود ، واستولى عليها بعد انتصاره على زعيمهم قرة يوسف وهربه الى مصر (١٤٠٣) . ولما توفي تيمور لنك ، خلفه نجله شاهرخ ميرزا (١٤٠٥ ـ ١٤٤٧) . وفي عهده رجع قرة يوسف من مصر ، وسحق جيش التيموريين سنة ١٤٠٨ ، واستعاد سلطنته ، واحتل العراق العربي (١٤١٠) . وبعد وفاته ، حارب نجله اسكندر شاهرخ واضطره ان يتنازل عن اذربيجان والجزيرة الى شقيقه جهان شاه الذي انتزع فارس الغربية الواقعة على الخليج العربي من التيموريين (١٤٥٢ ـ ١٤٥٨) .

الا ان اوزون حسن ، امير اق قويونلو او الخروف الابيض ، انقض على ممتلكات الخروف الاسود ، واخذ منهم اذربيجان والجزيرة وفارس الغربية سنة ١٤٦٨ . ثم انتشرت الفوضى في العراق وفارس في اواخر القرن الخامس عشر .

وكان الصفويون آنذاك يعيشون في مقاطعة اردبيل التي اقطعهم اياها تيمور لنك . وهم صوفية واصحاب طريقة ينتمون الى الامام موسى الكاظم ، رسخوا نفوذهم في اذربيجان، واستعان زعيمهم اسماعيل بقبائل تركية ، وهاجم الخروف الابيض وقهرهم واستولى على اذربيجان وفارس والعراق ، ولقب نفسه بالشاه ، واسس السلالة الصفوية التي اشتهر من سلاطينها ايضا في وقت لاحق طهماسب الاول (١٥٢٤ ـ ١٥٧٦) وعباس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) .

وحكم اسماعيل شاه ٢٣ سنة (١٥٠٢ ـ ١٥٢٤) ، وامتدت امبراطوريته من العراق غربا الى خراسان وامبراطورية المغل شرقا ، ومن باكو وتفليس شمالا الى الخليج العربي جنوبا . وازدهرت تجارتها في عهده . لكنه اضطر الى مجابهة الشيبانيين في ما وراء النهر (مقتل محمد الشيباني ، خان الازبك سنة ١٥١٠) والعثمانيين في الغرب والشمال الغربي والبرتغاليين في الجنوب الشرقي . وحكم بعده نجله طهماسب ٥٢ سنة ، ثم عباس الاول

٤٢ سنة ، بعد فترة اضطرابات داخلية واجتياحات خارجية .

المماليك في سوريا ومصر والحجاز

امتدت دولة المماليك على سوريا ومصر والحجاز في مطلع القرن السادس عشر وقبله . وأصل المماليك ارقّاء ، اخذوا اسرى في الحروب او شروا صغارا ودربوا على الفروسية . وهم من القفقاس او من آسيا الصغرى اجمالا . وقد عملوا حرّاسا لايوبي مصر ، ثم تقووا واستولوا على السلطة سنة ١٢٥٠ م . واختاروا شجرة الدر لتتولى امرهم . وكان عددهم يتراوح بين ١٠٠٠٠ و١٦٠٠٠ فارس . ويقفون دوما صفا واحدا ضد اعدائهم او حتى ضد الشعب مهما عظمت الخلافات بينهم . ولا يتزوجون من غريبة، ولا يتكلمون الا اللغة الشركسية ، ولا تربطهم باهل البلاد الا رغبة استغلالهم . وفي عام ١٥٠١ ، كان على رأسهم السلطان قانصوه الغورى الذي حكم حتى عام ١٥١٦ ، وخلفه طومان باى الثاني آخر سلطان مملوكي وآخر المماليك البرجية الشراكسة .

العثمانيون في آسيا الصغرى واوربا

ينتمي العثمانيون الى قبيلة غزّ (اوغوز) رحلت من خراسان الى الاناضول ، بزعامة ارطغرل بن سليمان شاه. وأقطعهم علاء الدين كيقباد السلجوقي اراضي قره جاه طاغ قرب انقرة ، فدعموه في حروبه ضد المغول وبيزنطية ، واجزل لهم العطاء . ولما توفي ارطغرل ، بقي نجله عثمان وفيا لآل سلجوق ، فمنحوه الاستقلال ، واذنوا له ان يمتلك فتوحاته (٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م) ، وان يسكّ العملة باسمه ، وفي عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩ م توفي علاء الدين الثاني آخر سلطان سلجوقي ، فاعلن عثمان قيام الدولة العثمانية . وتوالى توسّع العثمانيين في القرن الرابع عشر في تراقية ومقدونية والاناضول ، الى ان جاء تيمور لنك ، وضربهم ضربة قاصمة سنة ١٤٠٢ م .

الا ان العثمانيين نهضوا من كبوتهم في القرن الخامس عشر ، واعادوا بناء دولتهم ، واحتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، واستأنفوا توسعهم في البلقان ، في عهد محمد الثاني الفاتح . وبلغوا قمة المجد في القرن السادس عشر في ايام سليم الاول وسليمان القانوني .

البرتغاليون في بحر الهند

تحركت البرتغال في اتجاه بحر الهند في وقت مبكر جدا . وبدأت مسيرتها الطويلة التي دامت ٨٣ عاما على طريق الهند الأطلسية باحتلال

مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م في عهد ملكها جان الاول الكبير. واندفعت في مجاهل بحر الظلمات ببطء وحذر وثبات، ووصلت الى طرفه الجنوبي اي الى حدوده الجنوبية مع بحر الهند بعد دورانها حول رأس العواصف. فبرزت امامها صعاب جديدة في بحر جديد لا تعرف شيئا عنه. مع ذلك، نزلت في كاليكوت في ملبار الهند عام ٩٠٤ هـ/ ١٤٩٨ م.

وكانت دوافع مسيرتها الطويلة اقتصادية محضة، تمثلت في تنافس البيوتات المالية الايطالية والممالك الايبيرية على احتكار التجارة العالمية التي كانت شرقية اصلا تعتمد على استيراد التوابل والحرير والبخور والعطور والسلع الاخرى من الشرق الاقصى والهند، وجزيرة العرب وساحل افريقية الشرقية، وعلى تصدير سلع اوروبا ومصر والشام وجزيرة العرب الى الهند.

وشكّت البندقية في قدرة البرتغال المالية والفنية والتقنية على الوصول الى بحر الهند، واذا وصلت اليه، في قدرتها على البقاء فيه لتكاليفه الباهظة ومقاومة العرب وحلفائهم مسلمي الهند المهيمنين على التجارة بين الشرق والغرب.

ورغم هذا التشكيك، بلغ البرتغاليون الهند، واقاموا متاجر لهم وحصونا على ساحل افريقية الشرقية، وعلى السواحل الغربية والجنوبية في شبه جزيرة الدكن وجوزرات اوكمباية، وتوسّعوا باتجاه اندونيسيا، وهاجموا الموانىء العربية الجنوبية ودخلوا البحر الاحمر والخليج العربي. واصبحوا خطرا داهما يهدد المصالح الاقتصادية العربية في الصميم والهندية ايضا.

وانتشرت اخبارهم في العالم اجمع، ونادت ممالك ساحل الهند الغربي المسلمة بالويل والثبور وعظائم الامور، واستنجدت بالمماليك اولا (قانصوه الغورى)، ثم بالعثمانيين بعدهم (سليمان القانوني). ولم يستغيثوا بالصفويين. ولم يطلب عرب الخليج ولا هرموز العون من احد، بل تدبروا امورهم انفسهم بانفسهم.

اما المماليك والعثمانيون، فقد استجابوا لنداء القاصي والداني، لأن مصالحهم الاقتصادية اصبحت في خطر هي ايضا، ولأنهم رغبوا في توسيع نفوذهم وترسيخه في البحر الاحمر والخليج العربي.

****

وهكذا يمكن ان نلخص اوضاع التجارة بين بحر الهند والبحر المتوسط واوضاع الدول الرئيسية المشرفة

عليها في مطلع القرن السادس عشر ، بما يلي :

١ ـ حافظت مملكة هرموز على كيانها ، وفدته بالمال : فدفعت اتاوة سنوية الى التيموريين (شاهرخ) لقاء حرية تصرفها ، ثم الى الصفويين (شاه اسماعيل) بعدهم .

٢ ـ اكتفى شاه اسماعيل بقبض المال من مملكة هرموز وتركها وشأنها تتصرف بتجارتها وسيطرتها على مناطق نفوذها ، وتفرغ للدفاع عن سلطنته ضد الشيبانيين في الشمال الشرقي وضد العثمانيين في الشمال الغربي .

٣ ـ كان المماليك ضعفاء ماليا وعسكريا ، يتهيّبون غزو العثمانيين لسلطنتهم المتداعية ، ويعجزون عن حماية مصالحهم الاقتصادية من تعدّيات البرتغاليين المتواصلة .

٤ ـ لم تكن للعثمانيين علاقة مباشرة بالتجارة بين بحر الهند والبحر المتوسط ، وكان شغلهم الشاغل انتهاز الفرص للتوسع في الشرق والغرب والجنوب .

٥ ـ كان البرتغاليون يصولون ويجولون في بحر الهند والخليج العربي والبحر الاحمر مستفيدين من تفوقهم بامتلاك سفن متطورة واسلحة فتّاكة (بنادق ومدافع) ، لم تصل بعد الى ايدي العرب المستضعفين او وصلتهم متأخرة وباعداد محدودة ونوعية رديئة .

القسم الثاني

التوسّع العثماني في الخليج العربي وأثره في تجارة المرور فيه

تغيّرت المعادلة الدولية كليا في الربع الاول من القرن السادس عشر ، فالعثمانيون قضوا على دولة المماليك في سوريا ومصر وحلّوا محلّها ، وابعدوا الصفويين عن العراق وبالتالي عن احد منافذ تجارة طريق الخليج ، وحاولوا التغلغل في البحر الاحمر وفي الخليج العربي ذاته ، فنشبت بينهم وبين البرتغاليين حروب عديدة في مواقع متباعدة وبعيدة فشلوا فيها كلها .

وتتجلى هذه الاوضاع الجديدة في النواحي التالية :

١ ـ قضاء العثمانيين على دولة المماليك وحلولهم محلها في السيطرة على منافذ تجارة بحر الهند على سواحل البحر المتوسط وفي موانىء البحر الاحمر لا سيما جدة والسويس .

٢ ـ ابعادهم الصفويين عن العراق ووصولهم الى البصرة والاحساء على الخليج العربي .

٣ ـ قيامهم بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين في الديو وفي الخليج العربي .

أولا . قضاء العثمانيين على دولة المماليك وحلولهم محلها

أ . العلاقات العثمانية المملوكية في النصف الاخير من القرن الخامس عشر :

كانت الازمات تتلاحق في دولة المماليك ، عندما كان العثمانيون يتوسعون بفتوحاتهم ويزدادون قوة . وطبّقت شهرتهم الآفاق بعد فتحهم القسطنطينية سنة ١٥٤٣ . واصبحت امبراطوريتهم في عهد السلطان سليم الاول احدى الدول الكبرى المسلمة الثلاث في العالم (العثمانيون ، الصفويون ، المماليك) ، بل اولاها ، واحدى الدول العظمى على مستوى اوربا ذاتها .

وكثيرا ما كانت تتوتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك وتنتهي بنشوب حرب بينهما ، ويظهر المماليك عليهم في نزاعاتهم المسلحة .

مع ذلك عندما خذل البنادقة المماليك حلفاءهم التقليديين في مطلع القرن السادس عشر ، نصرهم العثمانيون ووقفوا الى جانبهم من بعيد ضد البرتغاليين .

١ ـ الصراع البرتغالي ـ العربي المملوكي

ففي عام ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠ م ، نشب قتال في كاليكوت بين التجار المسلمين وبين البرتغاليين احرق فيه الافرنج عشر سفن مصرية ، فزاد العداء بين العرب والفرنج .

(١) تصاريح المرور البرتغالية : ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١ م

وفي العام التالي ، ٩٠٧ هـ ، قرر البرتغاليون منع العرب من الحصول على التوابل ، فاقاموا متاجر لهم في النقاط الرئيسية على ساحل شبه جزيرة الدكن الغربي ، واتخذوا اجراءات تقضي ان يحمل تصريح مرور كل تاجر يغادر احد البنادر الهندية والا وقع تحت طائلة عقوبة الاعدام او الاستعباد . ولا تعطي تلك التصاريح الى القاصدين البحر الاحمر تجارا كانوا ام سفنا . مع ذلك ، بقيت

السفن تنقل التوابل «تهريبا» الى البنادر العربية .

(٢) اعتراض البرتغاليين السفن الذاهبة الى البحر الاحمر : ٩٠٨ هـ/١٥٠٢ م.

وفي عام ٩٠٨ هـ/١٥٠٢ م، اخذ البرتغاليون يعترضون السفن الذاهبة الى البحر الاحمر ، واحتلوا البندر العربي في جزيرة كلوة على ساحل افريقية الشرقية ، وتحالفوا مع ملكي كننور وكشن ضد ملك كاليكوت . وفي عام ٩٠٩ هـ/١٥٠٣ م . ارسلوا اسطولا لمنع سفن المسلمين من دخول البحر الاحمر .

(٣) تهديد بندر جدة : ٩١١ هـ/١٥٠٥ م

وفي عام ٩١١ هـ/١٥٠٥ م ، توغل البرتغاليون في البحر الاحمر ، ووصلوا الى مستوى جدة . وشعر قانصوه الغوري بخطرهم على الاماكن المقدسة المسلمة ، وقرر محاربتهم .

(٤) احتلال جزيرة سقطرة : ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م

وفي عام ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م ، احتل البرتغاليون جزيرة سقطرة ، وبنو حصنا فيها ، وابقوا اسطولا في مياهها ، مهمته مراقبة السفن ومنعها من دخول باب المندب .

رغم جميع هذه الاجراءات ، ظلت التوابل تصل الى الشام والاسكندرية ، غالبا عن طريق الخليج العربي . فقرر البوكيرك سدّ هذا الطريق ايضا .

(٥) احتلال مملكة هرموز : ٩١٣ هـ/١٥٠٧ م

لذلك هاجم مملكة هرموز بلا مبرر ودون سابق انذار او اعلان حرب خلافا لجميع الاعراف الدولية . وبدأ باحتلال بنادرها الواقعة على ساحل خليج عمان لا سيما مسقط وصحار وخورفكان . ثم استولى على هرموز ، واغلق عمليا مدخل الخليج العربي في وجه السفن الذاهبة الى البصرة . فاصبحت الآمال معقودة على قانصوة الغوري وعلى حملته البحرية التي طال انتظارها .

٢ . امتناع البنادقة عن مدّ يد العون الى المماليك

كانت البندقية الدولة المستفيدة الكبرى من المماليك والموزعة الرئيسية لسلع الهند والشرق الواصلة الى الاسكندرية . وكان مفروضا فيها ان تقف الى جانب حلفائها المماليك ضد البرتغاليين لأنها تضررت من تصرفات البرتغاليين مثلما تضررت مصر وسوريا . لكنها لم تفعل بل تخلت عنهم ، واتصلت بالصفويين عساها توفق بفتح طريق برية من فارس الى الامبراطورية العثمانية ، فساحل

البحر المتوسط .

٣ ـ حملة قانصوه الغوري البحرية على البرتغاليين : ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م

ادرك قانصوه بوضوح تام ان لا بد له من سحق البرتغاليين لتثبيت سلطته . فعزم على ملاحقتهم في بحر الهند ، ومنازلتهم هناك .

لكن اعترضت صعاب لا تحصى تجهيز حملته البحرية عليهم . فمالية دولته سيئة جدا تعجز عن دفع رواتب الجند ، والمماليك فرسان برّ لا أسود بحر . وكان لا بد من اعداد حوض جديد لبناء السفن في السويس لأن سفن البحر المتوسط لا تصلح لبحر الهند . وينبغي ايجاد خبراء صنع السفن والخشب وحديد المدافع والاشرعة وكل ما يلزم . وتخطى الغورى جميع هذه العقبات ، وبوشر ببناء ١٩ سفينة سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦ م ، وظهر الاسطول المملوكي في بحر العرب سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م . وانتصر في البدء ، ثم قضى عليه سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩ م .

ولم يثن هذا الفشل قانصوه الغوري عن عزمه . فاستنجد بالسلطان بايزيد الثاني ، لكن انطلق فرسان القديس يوحنا من قاعدتهم في جزيرة رودس ، واعترضوا السفن المملوكية ، واستولوا على شحنتها .

ولا تعني هذه اليد البيضاء العثمانية ان الصفاء والوّد سادا العلاقات العثمانية المملوكية . فالخلافات بينهما كانت عميقة ، والقضية قضية مصير ، واسباب الحرب كثيرة .

ب ـ اسباب الحرب بين العثمانيين والمماليك

اسهمت اربعة اسباب رئيسية في اشعال الحرب بين العثمانيين والمماليك :

١ ـ اولها انتزاع الاشرف قايتباى من رسول السلطان الهندي محمد البهمني معظم الهدايا المرسلة الى السلطان العثماني ، مما ادى الى نشوب حرب عثمانية مملوكية في عهد بايزيد الثاني ، توّسط ، حاكم تونس ، المولى عثمان الحفصي ، في انهائها ، وانهاها دون أن ينهي ما في القلوب .

٢ ـ ثانيها الخلاف المزمن على بلاد ذي القدرية ، الواقعة شمالي سوريا ، والفاصلة بين المماليك والعثمانيين . فقد ضاق السلطان سليم ذرعا بفتنها ودسائسها ، فاحتلها سنة ٩٢١ هـ/١٥١٥ م ، وقتل امراءها لا سيما الامير علاء الدولة .

٣ ـ ثالثها تحالف المماليك والصفويين ، واتفاق الشاه اسماعيل وقانصوه الغورى على التآمر ضد آل عثمان .

٤ ـ رابعها ايواء قانصوه الغورى الامير علاء الدين ابن شقيق سليم الاول ورفضه تسليمه الى عمّه العثماني .

جـ. المفاوضات والاحداث

١ ـ جهّز السلطان سليم الاول جيشا عظيما (١٥٠ الفا) سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦ م ، واتجه به الى الشرق وكأنه يريد استئناف الاعمال الحربية ضد الشاه اسماعيل . واخبر الشاه اسماعيل حليفه قانصوه الغورى ان الاعمال الحربية متواصلة بينه وبين العثمانيين ، وحرّضه عليهم . فاعدّ الغورى جيشا كبيرا ، وسار على رأسه الى حلب في ١٧ أيار سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦ م ، ونزل بها في ١٠ تموز سنة ١٥١٦ م .

٢ ـ ارسل سليم الاول الى قانصوه الغورى سفارة مؤلفة من مولانا ركن الدين وقراجا باشا ، عرضت عليه ، لتفادي الحرب ، التنازل له عن بلاد ذي القدرية ، فاشترط السلطان المملوكي عليها ارجاع القدرية الى نجل علاء الدولة وامتناع العثمانيين عن محاربة الصفويين ، فرفضت ، فسجنها . ثم بعث في وقت لاحق بمندوب عسكري عنه وكلّفه بتبليغ سليم الاول شروطه ، فاستقبل السلطان العثماني السفير المملوكي في البستان ، وقتل معاونيه ، وحلق ذقنه وشاربيه ، واركبه حمارا أعرج ، وردّه الى المماليك . فاصبحت الحرب حتمية بينهما .

٣ ـ وخرج قانصوه الغورى من حلب بقواته (٦٠٠٠٠ محارب ، منهم ١٦٠٠٠) فارس مملوكي والباقي جند مصريون وسوريون) الى مرج دابق ، يصحبه خير بك نائب حلب وسباهي نائب الشام . واتجه سليم الاول بجيشه الى حلب ايضا ، ومعه سنان باشا اعظم قواده والوزير يونس باشا .

٤ ـ وصدّت القوات المملوكية طليعة الجيش العثماني في البدء . الا انه كرّ عليهم ، واطلق عليهم نيران بنادقه بغزارة وقنابل مدافعه فارتعبت خيولهم وجفلت وعمّت الفوضى صفوفهم . وسارع خير بك نائب حلب الى خيمة قانصوه الغوري ، ونقل له ان العثمانيين دحروهم ، ثم انسحب الى حلب . وانتشر خبر

الهزيمة بسرعة فائقة بين الجنود ، فولّوا الادبار ، وقتل السلطان المملوكي دهسا بين الهاربين ، ولم يعثر على جثته .

٥ ـ وآل النصر العثماني في مرج دابق (٢٦ رجب سنة ٩٢٢ هـ/ ٢٤ آب سنة ١٥١٦ م) الى خضوع باقي المدن سلميا ، والى الحاق سوريا ولبنان بالامبراطورية العثمانية اداريا وماليا وسياسيا . ونظم سليم الاول الملكية العقارية وجعلها اميرية وخاصة ، وحمى التجّار ، وخفض الرسوم الجمركية من ٢٠٪ الى ٥٪ لتشجيع التجارة .

٦ ـ وامضى سليم الاول اربعة اشهر في بلاد الشام ، ثم استأنف مسيرته الظافرة ليفتح مصر . وفعل وهزم طومان باى في الريدانية (٢٩ ذي الحجة سنة ٢٢ هـ/ ١٥١٦ م) ، ودخل القاهرة واقام في جزيرة الروضة (٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م) . ولما القي القبض على طومان باى ، طيف به في شوارع القاهرة وشنق عند باب زويلة . وانتهت بشنقه دولة المماليك .

د. نتائج فتح العثمانيين سوريا ومصر

ترتب على فتح العثمانيين سوريا ومصر نتائج عالمية ، يهمنا منها ما يتعلق بالتجارة بين بحر الهند والبحر الاحمر :

١ ـ فقد اصبحت الدولة العثمانية تسيطر على طريق البحر الاحمر العربية ، وعلى منفذي الاسكندرية وبلاد الشام . بالتالي ، تقتضي مصلحتها الاقتصادية العليا مرور السلع بأمان وبلا تعويق من مصادرها في الشرق الى اسواق استهلاكها في الشرق الادنى واوربا .

٢ ـ وصارت مصلحتها الاقتصادية العليا متوافقة مع المصالح العربية الاقتصادية ومتضاربة مع المصالح الاقتصادية البرتغالية . وهذا الوضع ينبغي ان يؤدي منطقيا الى التقارب بين العرب والدولة العثمانية والى محاربة الدولة البرتغالية في بحر الهند والبحر الاحمر والخليج العربي . وقد حصل .

ثانيا . ابعاد العثمانيين الصفويين عن العراق ووصولهم الى البصرة والاحساء

قضى العثمانيون بتصفيتهم المماليك على اثنين من اعدائهم دفعة واحدة ، امبراطورية

المماليك وبلاد ذي القدرية . لكن نشأت عداوة جديدة لهم مع البرتغال عن فتوحاتهم في سوريا ومصر ، الى جانب عداوة الصفويين التقليدية ، وانهماكهم في حروب البلقان وجزر المتوسط وشاء القدر ان يتولى شئونهم في تلك الظروف التوسعية في جميع الجهات سلطانان عظيمان جدا ، اخذا على عاتقهما التوسع في الشرق على حساب الدولة الصفوية واقتطاع ما يقرب من نصف اراضيها وضمه الى امبراطوريتهما الشاسعة ، نقصد سليم الاول وسليمان القانوني . وتميّزت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالتوتر الشديد على الدوام . وكانت اسباب نشوب الحروب بينهما كاملة تنذر بالانفجار في اي لحظة .

أ. اسباب الحروب بين العثمانيين والصفويين

اهمها اربعة :

١ ـ ارسال الشاه اسماعيل دعاة الى الامبراطورية العثمانية ومحاولاته اثارة الفتن على الحدود .

٢ ـ وايواؤه الامير مراد بن احمد شقيق سليم الاول ورفضه تسليمه الى العثمانيين .

٣ ـ اخيرا رغبة العثمانيين انفسهم بالتوسع باتجاه الشرق .

لذلك كله حدثت نزاعات مسلحة بينهما في ايام السلطان سليم الاول وفي ايام السلطان سليمان القانوني .

ب. الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليم الاول والشاه اسماعيل

١ ـ في سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م ، عقد السلطان سليم اجتماعا في ادرنة ضمّ وزراءه وقوّاده، تم فيه التداول في اعلان الحرب على الصفويين ، فاقره المجتمعون ، وابلغ الى الشاه اسماعيل .

٢ ـ تلاقي الجيشان في جالديران في ناحية تبريز ، وتفوق خيّاله الصفويين في البدء على الجناح العثماني الايسر . لكن ضربهم العثمانيون بمدافعهم عندما انتقلوا الى الهجوم على الجناح العثماني الايمن ، ففرّقروا شملهم وتغلبوا عليهم ، وجرح الشاه اسماعيل ، وهرب جيشه وهربه . ولحق بهم العثمانيون ، واحتلوا مدينة تبريز .

٣ ـ ثم قرر سليم الاول اخضاع بلاد كردستان ، فوقف في وجه الجيش العثماني اميرها قره خان الذي نصبّه الشاه اسماعيل ، ووقعت بينهما معركة حاسمة دارت رحاها قرب بلدة فوجحصار ،

انتصر فيها العثمانيون على جيش الشاه اسماعيل مرة ثانية ، وقتلوا قره خان ، فاعلن جميع الامراء الاكراد الطاعة لهم . عندئذ عاد السلطان سليم الاول الى الآستانه (٩٢١هـ/ ١٥١٥) تاركا بعض قواده في كردستان على ان يعود الى تصفية الصفويين في وقت لاحق .

٤ ـ الا انه انشغل بفتح بلاد الشام ومصر ، ثم رجع الى الاستانة ، وتوفي سنة ٩٢٦ هـ/ ١٥١٩ م وهو في طريقه الى ادرنة ، وخلفه نجله سليمان القانوني (٩٢٦ هـ/ ١٥١٩ ـ م - ٩٧٤ هـ/١٥٦٦ م).

جـ. الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليمان القانوني وطهماسب الاول خليفة الشاه اسماعيل:

لم تتوقف الحروب بين الصفويين والعثمانيين بوفاة الشاه اسماعيل وسليم الاول ، بل تجددت لتجدد اسبابها .

فقد تحالف طهماسب الاول مع البرتغاليين ضد العثمانيين ، لأنه كان بحاجة لبنادقهم ومدافعهم ، ولأنهم كانوا بحاجة الى استبعاد العثمانيين عن النشاط الحربي في بحر الهند والبحر الاحمر والخليج العربي .

واستقبل سفارات شارل الخامس ملك اسبانية وامبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة وعدو العثمانيين في اثناء حصارهم مدينة فيينة سنة ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م) ، ووعدوه بدعمه في حربه مع سليمان القانوني .

وتكررت غارات اكراد فارس الصفوية على الممتلكات العثمانية في دياربكر وولاية حلب . فاعلن سليمان القانوني الحرب على طهماسب .

١. احتلال سليمان القانوني بغداد وقبوله مفاتيح البصرة: ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م:

وسار على رأس جيش عثماني قاصدا الامبراطورية الصفوية وعاصمتها الجديدة . وفي اواخر خريف سنة ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م ، بينما كان يفتش عن موضع ينزل فيه وهو وجيشه لتمضية فصل الشتاء ، اذ جاءه موفد من محمد خان ، حاكم بغداد الصفوي ، يحمل رسالة بقي مضمونها سرياً ، لكن ظهرت آثارها عندما اتجه العثمانيون الى بغداد . فقد غادرها محمد خان قبلهم . واستقبلت الجيش العثماني بالزينة والترحاب ، فدخلها بلا قتال . واعلنت المدن العراقية خضوعها الواحدة تلو الاخرى ، لا سيما البصرة التي قدّم اميرها راشد بن مغامس مفاتيحها للسلطان العثماني .

وامضى سليمان القانوني اربعة

اشهر في بغداد ، بنى في غضونها قلعة فيها ، وجعلها ولاية عثمانية ، ونظّم الحكم المحلي فيها ، وعيّن سليمان باشا الالباني واليا عليها ، وترك له حامية تضم الفا من المشاة المسلحين بالبنادق والفا من الفرسان . وفرز ٣٢,٠٠٠ جندي لحماية الولاية ، ثم غادر بغداد في ٢ نيسان سنة ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ ، وذهب شمالا .

٢. ثورة البصرة الاولى سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦ واخمادها:

حكم يحيي رئيس احدى العشائر العربية البصرة بعد وفاة راشد بن مغامس ، وارسل السلطان سليمان القانوني في ايامه خرّم بك ليبني قلعة تراقب حصونا كانت قد اعطيت لبعض العرب مكافأة لا نضمامهم الى جانب العثمانيين . فاستاءوا ، واستنجدوا بيحيى حاكم البصرة ، فنجدهم بمائة سفينة . الا ان اويس باشا ، والي بغداد العثماني ، ارسل الفي جندي الى خرّم بك على وجه السرعة ، فهزم خرّم المتمردين .

لكن رفض يحيى ، حاكم البصرة ، الخضوع . فسيّرت بغداد جيشا ضده . ولحق بالجيش الاول جيش ثان بقيادة والي بغداد نفسه . وهوجمت البصرة من الجنوب والشمال ، وانتصر العثمانيون على العصاة الذين هربوا الى الاحساء . ودخلوا البصرة في ١٥ كانون الاول سنة ١٥٤٦ م ، وعيّنوا بلال محمد بك حاكما جديدا لها . واسسوا فيها دار صناعة لها حوض احتفظ فيه بـ ١٥ سفينة لاستعمالها ضد البرتغاليين .

د. الاضطرابات في البصرة وبغداد في عهد السلطان العثماني سليم الثاني (٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦ - ٩٨٢ هـ ١٥٧٤ م):

١ - ثورة البصرة الثانية سنة ٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦ م واخمادها

وفي عام ٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦ م ، في اوائل سلطنة سليم الثاني ، اوقف حاكم البصرة شيخا من بني عليان ، وحاول ان يقتصّ منه بسبب بعض الجرائم التي ارتكبها بعض افراد عشيرته . فهرب الشيخ ، وترقب الحاكم حتى توجه الى الاحساء ، فهاجمه وضربه . واستعدّ ٢٠,٠٠٠ بدوي لحصار البصرة من البر والماء . ونزلوا على اطواف نخيل في نهر دجلة ، وعجزت مدافع العثمانيين عن ايقافهم . ثم ترك العرب الاطواف ، واضرموا النار فيها ، ووجّهوها الى الحصون التركية ، وسبحوا هم الى الشاطىء يترقبون الحصون ويطلقون النار على كل جندي يبين . فاختنقت حامية احد الحصون بالدخان . كذلك اوقع العرب فرسان الترك في الشرك ، وامعنوا تقتيلا بهم . مع ذلك ، لما جاءت التعزيزات من بغداد ، انسحب

البدو سنة ٩٧٥ هـ/١٥٦٧ م ، وقبل ابن عليان ان يدفع ضريبة الى خزينة البصرة مقدارها ١٥,٠٠٠ ليرة ذهبية .

٢ ـ ثورة بغداد سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م وإخمادها :

وفى بداية عام ٩٧٦هـ/١٥٦٨م جمع الأمير الصفوى القاص ميرزا شقيق طهماسب ، ١٢٠٠٠ محارب من جيورجية والقفقاس والمنفيين ، وأخفاهم فى بعض الأودية القريبة من بغداد ودخل هو متسترا بثياب تاجر . وتسلل ١٥٠٠ من رجاله الى داخل المدينة . وكانت خطتهم تقضى بقتل الوالى وموظفيه وكل من يعترضهم . لكن وشى بهم أحد الخارجين على القانون ، وأبيد المتآمرون ، وهرب ميرزا مع ٣٠٠٠ من فرسانه .

هـ. نتائج إحتلال العثمانيين العراق :

وترتب على إنتصار العثمانيين نتائج كثيرة ، يهمنا بعضها فقط .

١ ـ فقد أتم العثمانيون بامتلاكهم العراق ، سيطرتهم على دروب القوافل فى العراق والشام ومصر ، وعلى منافذ الطريقين البحريين العربيين اللذين تسلكهما تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط .

٢ ـ وصارت مصلحتهم الاقتصادية العليا تقضى بإنعاش التجارة فى الأجزاء الجديدة من امبراطوريتهم ، لما تستوفى الدولة من رسوم على أصنافها وما توفر أعمالها من أسباب حياة لكثير من السكان .

٣ ـ وأصبحوا بالتالى ملزمين بتأمين الملاحة فى الخليج العربى والبحر الأحمر وبحر الهند ومقاومة البرتغاليين بحد السيف لمحاولتهم سد الطريقين العربيين وتحويل حركة النقل بالقوة الى الطريق الأطلسية .

وقضت هذه الاعتبارات أن يقوم العثمانيون بحملات بحرية بعيدة على البرتغاليين وعلى متاجرهم فى ساحل الدكن الغربى وفى الديو وفى الخليج العربى .

ثالثا. قيام العثمانيين بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين فى الديو والخليج العربى :

بلغ عدد الحملات الحربية البحرية أربع حملات ، جرت كلها فى عهد سليمان القانونى ، وانطلقت اثنتان منها من ميناء السويس على البحر الأحمر ، واثنتان من مرفأ البصرة . فقد أدرك هذا السلطان العثمانى العظيم أن ازدهار العراق وسورية ومصر وبالتالى الأجزاء الجديدة والأساسية من الأمبراطورية العثمانية الناشئة ، يتوقف على إعادة

النشاط الى المواصلات المائية بين بحر الهند والبحر المتوسط عن طريق الخليج العربى أو عن طريق البحر الأحمر أو عن كليهما . لذلك كان لابد من مجابهة البرتغاليين وحلفائهم الذين عرقلوا تلك المواصلات ، وحولوها الى الجهة الغربية عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان لابد من تلبية نداءات الاستغاثة الصادرة عن ملوك مصادر السلع فى الهند مثل ملك كاليكوت (٩٣٤هـ/١٥٢٧م وملك الديو ٩٣٩هـ/١٥٣٢م) وملك جوزرات (كمباية) الذى تعهد بدفع نفقات حملة عثمانية قوامها ١٠٠٠٠ جندى .

ورأى السلطان العثمانى أن الفرصة مواتية له ، فأمر سليمان باشا حاكم مصر بإعداد أسطول والذهاب لقتال البرتغاليين ، وكتب له ما يلى : عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجاتك ، وإعداد العدة .. للجهاد فى سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة ، وجمع جيد كاف ، فعليك أن تخرج الى الهند ، وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإذا قطعت الطريق ، وحاصرت السبيل المؤدية الى مكة والمدينة ، تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون ، وازلت رايتهم من البحر .

أ. حملة سليمان باشا الخادم الملقب بالوزير (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) ضد البرتغاليين :

١ ـ التعريف بسليمان باشا :

أصل سليمان باشا انكشارى يونانى من شبه جزيرة موره ، عمره ٥٠ سنة فيما قيل ، وهو قصير ، بدين ، ذميم ، قبيح الخلقة ، شر الاخلاق ، فتاك ، غدار ، لكنه جبان ، خوار ، خواف ، لم تعهد فيه شجاعة ولا اقدام .

٢ ـ إعداد الأسطول فى ميناء السويس :

وكانت السويس ، ميناء اعداد أسطول الحملة وانطلاقها ، قرية بائسة ، شبه محرومة من المياه العذبة منذ ٨ قرون بعد ترميل القناة التى كانت تصلها بنهر النيل ، تعيش من خدمات القوافل الذاهبة الى القاهرة ، ومن مرور الحجاج المسلمين الى مكة والمدينة ، والمسيحيين الى سيناء ، لكن نشاطها كان يزداد فى وقت اعداد الحملات البحرية فيها . وقد وصفها الايطالى ف. بيغافتا سنة ٩٨٤هـ/١٥٧٦م ، فقال : السويس بلدة صغيرة ، فيها القليل من المنازل المنخفضة الفقيرة ، يسكنها الأتراك وبعض العرب والمسيحيين واليهود المهتمين بالمكوس وبعض المرتدين من الايطاليين المغامرين . وتحوى عدة

حمامات وجوامع وسوق بيع كبيرة فيها المخازن والمؤن والسلع . ولدار الصناعة فيها حوض ماء كافى العمق ، يمكنه أن يستوعب ١٥ الى ٢٠ سفينة . وشاهد بيغافتا فيها ١٦ سفينة ، أربع منها فقط صالحة للعمل و ١٣ مدفعا لحمايتها . وتبنى دار صناعتها زوارق تجارية صغيرة لحساب السلطان ، تؤجر لبعض الناس لأن الباب العالى يحتكر الملاحة .

ولم يكن بناء الأسطول فيها ميسورا . فالخشب مفقود فيها وفى مصر وفى بلاد الشام ، ويؤتى به من خليج اياس الى الأسكندرية فى البحر ، ثم ينقل فى نهر النيل الى القاهرة ، ويحمل منها على ظهور الجمال الى السويس . واليد العاملة الخبيرة مفقودة أيضا ، فاستعين بمهندس بناء سفن من جينوة . والملاحون مفقودون ، فجىء بـ ٨٠٠ بندقى و ١٥٠٠ بحار من جميع أنحاء الأمبراطورية العثمانية .

لذلك تأخر اعداد أسطول حملة سليمان باشا الى ربيع سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م . ولما إنتهى بناؤه ، بلغ عدد سفنه ٧٠ غرابا و ٣٠ برشه حسب النهروالى و ٧٤ الى ٧٦ سفينة حسب المصادر البرتغالية . لكن لم تركب صواريها ولم تنصب مدافعها عليها فى السويس .

٣ ـ ذهاب أسطول الحملة الى الديو وهرموز : ٢٣ حزيران ١٥٣٨م/٩٤٥هـ :

وغادر أسطول الحملة السويس سنة ٩٤٥هـ/٢٢ حزيران ١٥٣٨ ، ومر بجدة وجزر كمران وعدن والشحر والديو وهرموز .

ففى جدة ، نصبت الصوارى والمدافع ، وأخذ سليمان باشا ١٠٠٠٠٠ أشرفى من حاكمها . وفى كمران رسا الأسطول واستعذب قبل أن يتجه الى باب المندب .

وعبر مضيق باب المندب ، وذهب الى عدن . وكان عامر بن داود من بنى طاهر ملكا عليها وقال النهروالى : لما بلغه وصول سليمان باشا للغزو فى سبيل الله وقطع جادرة الفرنج عن الاضرار بعباد الله ، فتح له باب عدن ، وأمر أن تزين ، وجمع له من البلاد ما أراد من الازواد ، وتوجه هو ووزيره للسلام عليه الى الغراب الذى هو فيه . فمجرد أن رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح ، أمر عسكره بدخول عدن وأخذها . فلما وصل اليه عامر البسه ومن معه خلعا ، ثم أمر بصلبهم على الصارى فى الغراب الذى هو فيه ، ونهب العسكر داره ، وشرعوا فى نهب البلد .

وقد وصف عدن أحد البنادقة الذين اشتركوا فى الحملة ، فقال عنها : «عدن حصينة الى أقصى حد .

تقع على شاطىء البحر ، تحيط بها جبال عالية ، وتحميها قلاع وحصون . وليس من جهة البحر والبر سوى منفذين يتمثلان فى فتحتين عرضهما ٣٠٠ قدم . وتحرسهما حصون هلالية وأبراج وأسوار . ويمتد أمام شاطئها جبل رملى يأتى بعده ميناء جنوبى تحميه قلعة يقع عند أسفلها برج يحرس مدخل الميناء الذى يبلغ عمقه ١٢ باعا وينتهى بقعر ممتاز . ويقع فى شمالها مرفأ آخر أوسع بكثير من الجنوبى . ويتوفر الماء فيها رغم جفافها وجدب أرضها . ويأتى ماؤها من المطر ، ويجمع فى صهاريج عميقة جدا يسخن فيها ، ويبرد قبل شربه» .

وعدن مدينة تجارية ، تقصدها كل عام سفن كثيرة قادمة من الهند محملة بالتوابل التى تنقل الى القاهرة . وقد ترك فيها سليمان ثلاث سفن لحراسة الميناء و ٥٠٠ انكشارى .

ومر سليمان باشا بالشحر ، وأخذ من سلطانها ١٦٠ أسيرا برتغاليا و ٦ سفن ضمها الى اسطوله . وذهب بعدها الى الديو ، ووصلها سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ، وكانت أنباء غدره قد سبقته وبلغت مسامع سلطان جوزرات .

وكانت مدينة الديو ذاتها تابعة لملكة كمباية أو جوزرات . ويحكمها الخواجا صفر الملقب خداوندخان ، وهو مرتد إيطالى . ولا يسيطر البرتغاليون إلا على القلعة التى بنوها ووضعوا فيها حامية قوامها ٨٠٠ جندى بقيادة ف. باشيكو ، ومعهم ست سفن حربية .

ونزل سليمان باشا فى موضع إسمه مظفر أباد قرب الديو . ففتح له خداوندخان أبواب الديو ، فسلبها عسكره . رغم ذلك اضطر أن يتعاون معه فى حصار القلعة البرتغالية الذى دام خمسة أسابيع تقريبا . وأصيب فيه المدافعون والمحاصرون بخسائر فادحة : فقد شقت المدفعية العثمانية ثغرات فى أسوار القلعة ، هرب منها كثير من الجند وباشيكو نفسه . وأسروا . وأغرقت المدفعية البرتغالية عددا كبيرا من أحسن أغربة الباشا . ولم يكن الحصار محكما فدخلت تعزيزات بحرية برتغالية عديدة الى المرفأ . وفشل هجوم شامل لاحتلال القلعة قام به الأتراك وخداوندخان معا فى ٣٠ تشرين الأول وسنة ١٥٣٨ .

وخاف سليمان باشا من وصول أسطول برتغالى جديد بقيادة د. غرسيا دى نورونها من بحر الهند على حين غرة . وأوحى له خداوندخان أن البرتغاليين أوشكو ، مثلما اعترف رسل من قبلهم وقعوا فى أسره ، أن يفاجئوا الديو بأسطول ضخم ليفكوا الحصار عن قلعتهم . فترك سليمان باشا مدافعه الكبيرة لخداوندخان ، وركب أغربته ، وأبحر بإتجاه هرموز ،

عساه يلتقى فى طريقه بسفن برتغالية منفردة ليسيطر عليها . ولما لم يعثر على أى سفينة كر راجعا الى السويس . أما خداوندخان ، فوقع مع البرتغاليين إتفاقا يحدد حقوقهم دون أن يضطرهم الى إخلاء قلعتهم .

٤ ـ عودة أسطول الحملة الى القلزم : ٩٤٦هـ/١٦ آيار ١٥٣٩م :

ومر سليمان باشا على الشحر ، ووضع فيها حامية عربية ، لكن غرقت ثلاث من سفنه عندها وتوقف في عدن وقوى حاميتها فأنزل فيها ٢٠٠ انكشارى و١٠٠ مدفع وذخيرة وأبقى فيها خمسة أغربة .

وغادر عدن ، وجاء الى مخا ، ونزل فى بندرها ، وخلع الناخوذه أحمد ، وأصر على مثوله بين يديه . فتهرب الناخوذة أحمد ، وذهب الى زبيد . فانتقل سليمان باشا بأسطوله الى جزر كمران (آخر كانون الثانى سنة ١٥٣٩م/٩٤٦هـ) ، وأبحر بسفن صغيرة الى البر ، وقصد زبيد ، ونصب خيامه عند أسوارها . وقطع رأس الناخوذة أحمد (٩٤٦هـ/٢٧ شباط ١٥٣٩) . ورجع الى أسطوله ، وعرج على جيزان التى انتزعها من شريف مكة ابى نمي بعد أن احتلها هذا الأخير ، ثم ذهب الى جدة ، وسافر منها الى مكة حاجا ، وعاد فمر بينبع ، وعبر منها الى القلزم بعد أحد عشر شهرا تقريبا من مغادرته السويس : ١٦ أيار سنة ١٥٣٩م ، وعاد سليمان باشا من مصر الى الاستانة ، وعزل بعد فترة وجيزة بعد أخذ ورد . وانتحر سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٢ ـ ١٥٥٣م .

ب ـ حملة بيرى ريس : ٩٥٨هـ/١٥٥١م :

شغل بيرى ريس منصب قبودان أى أمير بحر فى مصر . فكلفه السلطان سليمان القانونى بقيادة أسطول عثمانى يضم ٣٠ سفينة تحمل ١٦٠٠٠ جندى من السويس الى الخليج العربى لقتال البرتغاليين .

وغادر السويس سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م . وقطع البحر الأحمر ، وعبر باب المندب ، وتوقف فى عدن وعزز حاميتها ، ومر بالشحر ، وفقد بعض سفنه على شاطئها ، ووصل الى مياه مسقط فى مطلع ٩٦٠هـ/١٥٥٢م .

وكان جاوودى ليسبو قائد حامية مسقط فحاصرها بيرى ريس شهرا كاملا فاستسلمت له بعد أن أمن المحاصرين على حياتهم . لكنه أخذهم عبيدا ، واستولى على مدافعهم ، ومؤنهم ، وأجبرهم على التجديف فى مراكبه .

ثم ذهب الى هرموز ، وحاصر القلعة البرتغالية فيها شهرا أيضا ، وضربها بمدافعه ، والحق بها أضرارا كبيرة . إلا أنه يئس من احتلالها ، فنهب

ما استطاع من المدينة والجزيرة . وفرقت عاصفة شديدة أسطوله ، لكن نجت منه ١٥ سفينة ذهبت الى البصرة ، ولم يبق معه سوى ثلاث سفن تعاطى بها أعمال القرصنة فى الخليج العربى قبل أن يصل هو أيضا الى بندر البصرة . وقيل له فيه أن البرتغاليين يتعقبونه ، فحاول الخروج من الخليج بثلاثة مراكب ، فقد أحدها أمام البحرين ، وتمكن من التخلص من أعدائه بالمركبين الباقيين . وعاد بهما الى السويس ومنها الى القاهرةبغنائم جمة .

وهكذا فشلت حملة بيرى ريس فشلا ذريعا ، فحوكم بتهمة التقصير والسلب والنهب بناء على طلب والى البصرة العثمانى ، فحكم عليه بالاعدام ، ونفذ به سنة ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م .

ج . حملة مراد بك : ٩٦١هـ/١٥٥٣م :

عين مراد بك أمير بحر فى مصر سنة ١٥٥٤م خلفا لبيرى ريس . وكلف بإعادة السفن الى السويس . فذهب الى البصرة ، وأقلع بتلك المراكب فى شهر آب سنة ٩٦١هـ/١٥٥٣م . إلا أن البرتغاليين اعترضوه مقابل هرموز ، فأغرقوا أفضل سفينة عنده ، وخرج بباقى سفنه الى خليج عمان مجاريا صحار وقلهات . وهناك هاجمه أسطول برتغالى ثان مؤلف من ٣٢ سفينة بقيادة ف. دى نورونها . فكر راجعا الى البصرة ، وأبلغ الباب العالى بفشله .

د . حملة على بن الحسين الخليجية سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٤م :

لم يتخل السلطان سليمان القانونى عن محاربة البرتغاليين فى الخليج العربى . ففى عام ١٥٤٤م/٩٦٢هـ ، كان فى مدينة حلب ، فعين عليا بن الحسين أمير بحر . وكلفه بجلب السفن العثمانية من البصرة الى السويس . فذهب على بن الحسين الى شط العرب واستلم قيادته البحرية . وخرج بأسطوله الذى كان يضم ١٥ سفينة ، واتجه الى الجنوب . فمر ببوشير والبحرين وجزيرتى قيس والقسم ، وجلفار ورأس مسندم ، وأصبح في خليج عمان .

وهنا هاجمته قوة بحرية برتغالية أولى قوامها ٢٠ سفينة فى شهر آب سنة ١٥٥٤م . وتكبد بعض الخسائر ، لكنه أكمل طريقه مجاريا شاطىء صحار ومسقط وقلهات . فهاجمه أسطول برتغالى ثان مؤلف من ٣٤ سفينة . وقاومته الطبيعة أيضا ، إذ هبت عليه عاصفة عاتية ، بددت سفنه ، وقذفتها الى الشرق ، وساقتها رياحها نحو الديو وسرت ، واضطر القبودان أن يرمى مدافعه فى البحر لينجى مراكبه ، فأصبح عاجزا عن مجابهة البرتغاليين ، ولجأ الى مرفأ

دمن بعد ثلاثة أشهر من اقلاعه من البصرة . وتخلى عن سفنه الباقية الى خداوندخان الذى تعهد بإرسال ثمنها الى الاستانة .

ولما سمح له بالعودة الى بلاده ، استصحب معه ٥٠ من رجاله ، ورجع عن طريق البر الى تركيا ، ومر بالسند وما وراء النهر وخراسان وفارس . ووصل فى شهر نيسان سنة ١٥٥٧م الى اندرينوبل حيث استقبله السلطان سليمان القانونى . فقدم له كتابه المحيط المعروف . وتوفى على بن الحسين سنة ١٥٦٢م فى السنة التى أعدم فيها بيرى ريس .

وهكذا انتهت حملات سليمان القانونى البحرية على البرتغاليين الى الفشل مثلما أخفقت حملة قانصوه الغورى عليهم قبله بثلاثين عاما . لكن هذا لا يعنى أن الفرنج نجحوا فى إيقاف التجارة الدولية فى الخليج العربى أو البحر الأحمر على الدوام . فقد ظلت أوضاعهم مضطربة الى أن تغلب أهل الخليج أنفسهم على جميع اجراءاتهم ، وعادوا الى مزاولة نشاطهم التجارى ووساطتهم بين بحر الهند والبحر الأحمر ، مثلما كانوا يفعلون قبل مجىء فاسكو داغاما الى بحر الهند .

وعادت الأمور الى ما كانت عليه فى أقل من ربع قرن ، أى منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر .

القسم الثالث

استمرار وصول السلع إلى الخليج العربي وشحنها إلى البحر المتوسط وإلى بحر الهند

لم يؤثر فتح طريق رأس الرجاء الصالح على وصول التوابل والسلع الأخرى الى المياه العربية وبنادرها . وأثبت المؤرخون الألمان هذا الواقع قبل سواهم ، لأن البندقية لم تتوقف عن تموين بلادهم بالتوابل وسلع الشرق . وبالتالى لم تستطع البرتغال أن تقطع جميع مسالك التجارة الدولية وطرق وصول أصنافها الى البصرة فبغداد فحلب فطرابلس أو بيروت ، أو الى القاهرة فالأسكندرية ، ثم الى أوروبا الجنوبية والوسطى بسفن البندقية خاصة وسفن مدن أخرى كثيرة .

أولا : انقطاع شحن التوابل الى الأراضى العربية فى الربع الثانى من القرن الـ ١٦ :

ولا شك أن نجاح البرتغال فى البدء فى الوصول الى مصادر السلع الشرقية وفى شرائها من منتجيها مباشرة ، أثار أزمة خانقة فى البنادر العربية فى الخليج والبحر الأحمر والبحر المتوسط وفى جمهورية البندقية خاصة لأن تجارها مالوا الى التشاؤم وأدركوا متأخرين نتائج السياسة التجارية البرتغالية ، وتوقعوا حصول كارثة اقتصادية فى مدينتهم بعد أن أخذت الأسعار تتعرض عندهم الى تقلبات مفاجئة مذهلة نشأت عن الاجراءات البرتغالية وعن ردود فعل البندقية سيدة الأسواق الأوروبية .

أ ـ الإجراءات البرتغالية :

وتلخصت التدابير البرتغالية فيما يلى :

١ ـ حدد الملك دون مانويل سعرا رسميا واحدا لبيع الفلفل سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م ، وحصر تجارة التوابل بالتاج البرتغالي وحده .

٢ ـ قطعت التوابل قطعا شبه كامل عن أسواق الأسكندرية وبيروت وطرابلس والأسكندرونه . ففى عام ١٥٠٢م . وجدت أربع بالات فلفل فقط فى بيروت ، ولا شىء البتة فى بيروت والأسكندرية سنة ١٥٠٤ و ١٥٠٦ . فتعذر العثور على حمولة توابل لأى سفينة فى تلك السنوات .

٣ ـ حلت لشبونة محل البندقية فى كثير من الأسواق الأوروبية ، فسيطرت البرتغال على سوق هولندة سنة ١٥٠١ ، وسوق انكلترة سنة ١٥٠٤ بعد وصول خمس سفن برتغالية مشحونة بـ ٣٨٠ طنا من الفلفل والتوابل من كاليكوت مباشرة ، وسوق ألمانيا الشمالية والوسطى سنة ١٥٠٧ ، وسوق فرنسة الغربية وقشتالة بعد سنة ١٥٢٤ .

٤ ـ وأخذت السفن البرتغالية ذاتها توزع التوابل على موانىء البحر المتوسط مثل جينوة (١٥٠٣) .

ب ـ ردود فعل البندقية :

حاولت البندقية أن تقاوم توسع البرتغاليين فى أسواق التصريف بشتى الوسائل .

١ ـ فسمحت فى شهر أيار سنة ١٥١٤ بنقل التوابل من مرافىء المشرق بسفن غير سفنها وأعفتها من الرسوم الجمركية عند دخولها الى أراضيها .

٢ ـ ولم تقف عند هذا الحد ، بل تقربت من البرتغال ، فجلبت سنة ١٥١٥ ما ينقصها من التوابل من لشبونة ذاتها .

٣ ـ وفى عام ١٥٢٧ ، عرض مجلس شيوخ البندقية على ملك البرتغال أن يشترى كل التوابل الواصلة الى لشبونة من الهند ، ما عدا الكمية اللازمة لاستهلاك البرتغال ، ويوزعها